جامعة الأزهر

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بقنا

النظم القرآني لأحداث الكون يوم القيامة

إعداد

د / إبراهيم حسن أحمد

مقدمة

" **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا * قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً * مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً** " (١) .

والصلاة والسلام على أشرف من نطق بالعربية فكانت به خير اللغات وختمت به الرسالات فكان خير خلق الله أجمعين ، وكانت معجزته حسن الختام ٠

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه في كل وقت وحين ٠

وبعد

فإن القرآن الكريم زاخر بالمعاني والأسرار التي من شأنها أن تقود الإنسانية إلى ما فيه خيرها ، وصلاحها ، واستقامة أمرها، ورحم الله أقواما كان القرآن الكريم أمرهم ونهيهم ، حجتهم وقوامهم لا يتحركون إلا به ، ولا يتكلمون إلا به ، ولا يعيشون إلا على تعاليمه وآدابه ، ومن هنا فتح الله لهم أبوابا من أسراره وأنواره ، وهيأ لهم به مكانة تليق بامتثال كتابه وتحصيل آدابه وذلك في ضوء نظمه وما امتلأت به آياته وسوره من معان أعجزت أرباب الفصاحة والبيان عن محاكاتها وصدق الله العظيم فقد قال :

" **قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً** " (٢) .

ومن هنا كان من فضل الله ــ سبحانه وتعالى ــ على أن منحني فضل إنعام النظر في بعض من آياته وسوره فطرقت الباب

---

(١) الكهف : ١ ـ ٣ ٠

(٢) الإسراء : ٨٨ ٠

مجتهداً وكلي أمل في أن يفتح الله لي أبوابا من الخير ورزقا من الفهم فكان هذا البحث المتواضع (**النظم القرآني لأحداث الكون يوم القيامة**) .

وقد دعاني إلى ذلك الموضوع أن أحداث الكون يوم القيامة تشغل حيزاً كبيراً في القرآن الكريم وأن فيها ما فيها من تذكير بيوم القيامة فاستجليت بفضل الله ـ سبحانه وتعالى ـ بعضا من لطائف نظمها حسبما أمدني الله من عون ورزقني من فهم .

وقد اعتمدت في تناول آيات أحداث الكون على المنهج الكلي التحليلي الذي يعتمد على النظرة الكلية للآيات ومدى علاقة اللاحق منها بالسابق وارتباط السابق باللاحق حتى يتجلى لنا الغرض المراد في أكمل صورة وأتمها ، فأسست العمل بتحليل بياني دقيق لجزئيات كل سياق بعد الإحاطة بجوه العام ومدى ارتباطه بجو الحدث الأم ثم بجو سورته ، وكيف عاونت الأدوات البيانية بألوانها وظلالها في إبراز وإحياء معالم الأحداث والمواقف ، وأظهرت كيف كان للنظرة البيانية دور في اكتشاف الترابط والتكامل بين السياقات .

وقد جاء البحث في مقدمة وتمهيد ثم أحداث الكون يوم القيامة معنونة بالسور التي وردت فيها حسب الترتيب النزولي للسور .

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفع به الإسلام والمسلمين ، وأن يجعله في ميزان الحسنات يوم القيامة ، وأن يرحم به آباءنا وأمهاتنا ومشايخنا وأساتذتنا وأن يجعله خطوة على طريق العلم فهو نعم المولى ونعم النصير .

"**وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**"(هود:من الآية٨٨)

دكتور/ إبراهيم حسن أحمد

مدرس البلاغة والنقد ــ كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بقنا

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

عقب نفخة الصور الأولى ، وفي بداية يوم القيامة سيكون الانقلاب التام لكل معهود ، والثورة الشاملة لكل موجود ، وهذا الانقلاب سيشمل الأجرام العلوية ، فتصاب السماء بالتشقق،والكشط ، والطي وتصاب الشمس بالتكوير ، ٠٠ وتصاب النجوم بالإنكدار والانطماس وتصاب الكواكب بالانتثار ، ٠٠ وهذا الانقلاب سيشمل الأجرام السفلية فتصاب الأرض بالرجف ، والدك ، والزلزلة ، وتصاب الجبال بالتفتت والتسيير ، والنسف ، وتصاب البحار بالتسجير والانفجار ويصاب كل ما على الأرض بالخراب والدمار ٠

وهذه الأحداث الكونية تشير إلى أن هذا الكون الموزون الحركة المضبوط النسبة ، المتين الصنعة ، المبني بأيد وإحكام ،سينفرط عقده وتتناثر أجزاؤه ، وتذهب عنه صفاته التي يقوم بها ، وينتهي إلى أجله المقدر ، حيث تنتهي الخلائق إلى صورة أخرى من الكون والحياة ومن الحقائق غير ما عهدت نهائياً في هذا الكون المعروف ٠ وهذا ما تهدف إليه آيات القرآن ، وتريد أن تبثه في المشاعر والقلوب ؛ كي تنفصل من هذه المظاهر الزائلة ـ مهما بدت لها ثابتة وتتصل بالحقيقة الباقية حقيقة الله الذي لا يزول ولا يحول ، حين يزول كل شيء ويحول ولكي تنطلق من إيثار المعهود المألوف في هذا الكون إلى الحقيقة المطلقة التي لا تقيد بزمان ولا مكان ، ولا رؤية ، ولا حس ، ولا مظهر من المظاهر التي تقيدها في ظرف ، أو إطار محدود ٠

إن الذي يحدث للكون يوم القيامة انقلاب مرهوب لكل شيء ، وما جاء منه مصوراً في آيات الكتاب الحكيم ، إنما هو على سبيل التقريب أما حقيقة ما يحدث للكون فعلمها عند الله ؛ لأنها أكبر من أن ندركها الآن بمشاعرنا ، وتصوراتنا المقيدة بمألوف حسنا ، وتفكيرنا، فأكبر ما نعهده من الانقلابات هو أن ترجف بنا الأرض في زلزال مدمر ، أو يتفجر من باطنها بركان جائح ، أو ينقض على الأرض شهاب صغير أو صاعقة ، أو تصاب الشمس بالكسوف أو يصاب القمر بالخسوف ، وأشد ما عرفته البشرية من طغيان الماء هو الطوفان زمن نوح ــ عليه السلام ــ ، وهذه كلها إلى جانب الاضطراب الشامل الهائل في بداية يوم القيامة ، أحداث لا تذكر .

ومجموع الآيات التي وردت في صفة الكون عقب النفخة الأولى كلها تشير إلى وقوع دمار لهذه الأفلاك بعد انفلاتها من النسق الذي يحكمها ، وينسق حركتها ، وقد اهتم القرآن الكريم بتصوير هذا الدمار وأورد آيات كثيرة تشير إلى ضخامة ما يحدث للكون مع قيام الساعة .

وسأقوم بدراسة هذه الآيات بلاغياً متبعاً في ذلك الترتيب النزولي للآيات كلما بدا ذلك معينا على فهم الصورة .

****

سورة المزمل :

قال ــ تعالى ــ : " **إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيماً * وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً * يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً * إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً * فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً ***

فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً * السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً * إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً " (١) .

هذه الآيات في مجملها تتضمن تهديداً وإنذاراً للمكذبين الذين كذبوا برسالة النبي – صلى الله عليه وسلم – ولم ينزجروا بل تمادوا في طغيانهم ، وكفرهم ؛ لهذا توعدهم الله بأصناف من العذاب تكون لهم في اليوم الذي ترجف فيه الأرض والجبال ، وتشيب فيه الولدان وتنفطر فيه السماء ، لعل في ذلك ما يكون رادعاً لهم عن طغيانهم محولاً لهم إلى طريق الحق والهداية ، والآيات بهذا المعنى قوية الارتباط بسياق السورة بوصفها تهديدا للمكذبين برسالة النبي – صلى الله عليه وسلم – وإنذارا لمن تسول له نفسه الوقوف في طريق الدعوة .

قوله : (إن لدينا أنكالا وجحيما ، وطعاما ذا غصة وعذابا أليما) إخبار من الله – عز وجل – أفاد تهديد المشركين بهذه النقم التي أعدت لهم ، لكي يمتنعوا عن إيذاء رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ويرجعوا عن كفرهم إلى طريق الحق والهداية ، والخبر جاء مؤكدا لأن المكذبين منكرون للبعث ، فضلا عن إنكارهم العذاب الواقع فيه وحالهم هذه تستدعي التأكيد ؛ لذا جاء الكلام مطابقا لحالهم ، وهذا الخبر متضمن لأنواع من العقاب أولها : الأنكال . والأنكال : جمع نِكل بالكسر وهو القيد الثقيل (٢) ، وهذا التعبير " كناية عن إذلالهم " (٣) وإهانتهم ؛ لأنهم لا يستطيعون الإفلات من غير قيود ،

---

(١) المزمل : ١٢ - ١٩ .
(٢) الراغب الأصفهاني : المفردات ، مادة (نكل) .
(٣) محمد عبد المنعم الجمال : التفسير الفريد ، دار الكتاب الجديد ج٤ ص ٣٢٠٢ .

وهذه اللفظة (أنكالا) توحي بمدى الذل والهوان المعد للمكذبين ، وتظهرهم في صورة بشعة ، مقيدين عن الحركة شأنهم شأن الحيوانات ، وهذا غاية في الامتهان .

وثانيها : الجحيم : وهي النار الشديدة اللفح . وثالثها : (طعاما ذا غصة) ، والغصة : اسم لأثر الغص في الحلق ، وهو تردد الطعام والشراب في الحلق بحيث لا يستساغ [١]، وفي وصف الطعام بالغصة مجاز عقلي علاقته السببية ، فالطعام لا يوصف بالغصة ؛ لأن الغصة عارض في الحلق سببه الطعام أو الشراب في الحلق بحيث لا يستساغ لبشاعته أو يبوسته [٢] . وكلمة (غصة) توحي بمدى بشاعة هذا الطعام حتى لكأنه غصة ؛ لوقوفه في الحلق دون نزول أو خروج .

ورابع أنواع العقاب : هو العذاب الأليم ، ونلحظ في ذلك بروز المجاز العقلي في وصف العذاب بالأليم ، فالأليم أي : المؤلم ليس هو العذاب وإنما هو المعذب بكسر الذال فهو من وصف الشيء بوصف محدثه وصاحبه [٣] وفي هذا ما فيه من المبالغة كما يظهر في هذه الأصناف نوع من التناسق حيث جمع لهم القرآن أربعة أصناف تشترك كلها في أنها أدوات تعذيب ، وهذا ما يعرف في علم البديع بمراعاة النظير ، أو التناسب في الكلام ، والآية توحي بصورة بشعة لما ينتظر المكذبين من العذاب ، ويلحظ في تلك الصورة نمو الحدث الذي يوحي به الترتيب المذكور ، فالجحيم أشد تأثيراً على المكذبين من الأنكال ، والطعام الموصوف بالغصة أشد من الجحيم ،

---

(١) ابن منظور : لسان العرب ، مادة (غصص) .

(٢) انظر : ابن عاشور : التحرير والتنوير ، تونس ، الدار التونسية للنشر سنة ١٩٨٤م ج ٢٩ ص ٢٧١ .

(٣) ينظر : خصائص التراكيب ص ٧٢ ، ٧٣ .

والعذاب الأليم أتم ونطاقه أوسع من الأنواع التي تسبقه ٠

ونلحظ في هذه الأصناف الأربعة نوعاً من التقابل بين صورتين إحداهما : في الدنيا ، والأخرى : في الآخرة ٠ فالمكذبون في الدنيا كانوا أصحاب نعمة ، وهذا مستفاد من قول الله ــ تعالى ــ " **وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً** " (١)، ومع هذه النعمة ، والأدلة الواضحة على وجود الله وقدرته ، كفروا ، وكذبوا برسالة النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ فمقتضى العدل الإلهي يوم القيامة أن يقيدوا بالذل والهوان ؛ لأنهم قيدوا أنفسهم في الحياة الدنيا بالشهوات واتباع الهوى عن اتباع الداعي ، وأوسعوا الخطا في فضاء الأهوية ، وأن يعذبوا بالجحيم بما كانوا يتقيدون به من تبريد الشراب ، والتنعم برقيق اللباس وتكلف أنواع الراحة ، وبعد ذلك لهم عذاب أليم بما كان لهم في الدنيا من العلو والتكبر ٠

هذا العذاب الذي أعد للكافرين زمنه (يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلاً) ٠ والرجف : شدة الاضطراب بما يهدم البنيان (٢) ، وصيغة الفعل تصور استمرار الرجف وتجدده وجرس الكلمة (ترجف) يدل على أن الأرض تزلزل زلزالاً شديداً مدمراً هادماً لكل ما عليها من عمران ٠٠ ، وفي هذا اليوم ترجف الجبال رجفاً شديداً يهدم بنيانها ، ويفتت صخورها ، ويجعلها كثيباً مهيلاً والكثيب : هو الرمل المجتمع كالربوة ٠ والمهيل : الذي يمر تحت الأرجل وهو الذي إذا أخذت منه شيئاً تبعك (٣) ، والآية تصور الجبال بعد رجفها رجفاً شديداً بالرمل المهيل في شدة التفتت وعدم التماسك والتشبيه يوحي بشدة الرجف الذي يصيب الأرض والجبال ،

---

(١) المزمل : ١١ ٠

(٢) ابن منظور : لسان العرب : مادة (رجف) ٠

(٣) ابن منظور : لسان العرب ، مادة (كثب) ٠

ويجعل الجبال التي هي أقوى شيء على الأرض تكون مثل رمل مجتمع هيل هيلاً [1].

وخص الجبال بكونها كثيباً مهيلاً دون الأرض مع أن الرجفة تصيب الأرض والجبال معاً ، لأن ذلك خاص بالجبال فالأرض تكون مقررة مكانها بعد الرجفة ، أما الجبال فتكون لسرعة زوالها وانتشارها رملاً مهيلاً .

وجيء بالفعل ماضياً مع الجبال ؛ للإشارة إلى تحقق وقوعه [2] حتى كأنه وقع في الماضي وأصبح حديثاً يحكى ، ووجه مخالفته لأسلوب (ترجف) ، إشعار بأن صيرورة الجبال كثيباً مهيلاً أمر عجيب غير معتاد فهو مظنة الإنكار والاستبعاد من السامعين استناداً إلى صلابة الجبال وقوة أحجارها وصخورها ومعادنها ، أما رجف الأرض فهو معروف ، إلا أن هذا الرجف أعظم مما عرفته البشرية .

وبعد تخويف المكذبين بما أعد لهم من أصناف العذاب في اليوم الآخر الذي تزلزل فيه الأرض والجبال شرع في تخويفهم بأهوال الدنيا فقال : " إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا ، فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلاً " ، ومن الملاحظ أن هذا القول الكريم ورد بين أحداث الانقلاب الكوني ، فهو مسبوق بارتجاف الأرض والجبال ، ومتلو بوصف لهول اليوم الآخر ، وما يحدث فيه من انفطار للسماء ، فكأن ورود هذا القول بين أحوال يوم القيامة يجعله داخلاً في إطار التخويف والتهديد

---

(١) انظر : الكشاف ج٤ ص ٦٤١ ، النيسابوري : غرائب القرآن ورغائب الفرقان ج ٢٩ ص ٧٩ .

(٢) انظر : الشوكاني : فتح القدير ، القاهرة ، الحلبي سنة ١٣٥١هـ ، ج٥ ص ٣٠٩ .

للمكذبين ، كأنه يقول لهم : إن الأمر غير مقصور على ما أعد لكم في اليوم الآخر من عقاب وإنما هناك عقاب في الدنيا ينتظركم إن دمتم على تكذيبكم واختار لهم ضرب المثل بفرعون مع موسى ـ عليه السلام ـ ؛ " لأن الجامع بين حال أهل مكة ، وحال أهل مصر في سبب الإعراض عن دعوة الرسول هو مجموع ما هم عليه من عبادة غير الله ، وما يملأ نفوسهم من التكبر والتعاظم على الرسول المبعوث إليهم بزعمهم أن مثلهم لا يطيع مثله " [١] كما حكى الله قولهم : " **أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ** " [٢] ، وحكى عن أهل مكة قولهم : " **لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ** " [٣] .

وأكد الخبر في بداية الآية ، لمراعاة حال المخاطبين الذين ينكرون رسالة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ونكر رسولاً في قوله : " إنا أرسلنا إليكم رسولاً " للتعظيم ، وفيه إشارة إلى أن مناط التهديد ليس شخص الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل صفة الإرسال . وتنكير (رسولا) المرسل إلى فرعون للتعظيم ، وفيه إشارة إلى أن الاعتبار بالإرسال لا بشخص المرسل ، إذا التشبيه تعلق بالإرسال في قوله : (كما أرسلنا إلى فرعون رسولا) إذ تقديره كإرسالنا إلى فرعون رسولا .

وقوله : (فعصى فرعون الرسول) إشارة إلى الغرض من الخبر وهو التهديد بأن يحل بالمخاطبين بسبب عصيانهم للرسول مثل ما حل بفرعون بسبب عصيانه للرسول الذي أرسل إليه . والتعريف في قوله (الرسول) للعهد الذكرى ، ومقتضى الظاهر أن يقول : كما

---

(١) التحرير والتنوير : ج ٩ ص ٢٧٣ .
(٢) المؤمنون : ٤٧ .
(٣) الزخرف : ٣١ .

أرسلنا إلى فرعون رسولاً فعصاه ... إلا أن إظهار (فرعون) بدل الإضمار " إيماء إلى أن ما كان له من العزة والعلو في الأرض ، والتبجح بكثرة الملك لم يغن عنه شيئاً ، ولم يدفع عنه عذاب الله" [١] وإظهار (الرسول) بدل الإضمار ، تصوير لفظاعة عصيان فرعون، وبشاعته بوصفه عصياناً لرسول من عند الله ، وفي هذا إشارة إلى أن عصيان المخاطبين أبشع وأدخل في الذم ؛ لأنهم كذبوا رسولاً شاهداً عليهم .

والحقيقة : أن موسى ـ عليه السلام ـ أرسل إلى فرعون وقومه وأن فرعون وقومه كذبوا وعصوا ، وأن فرعون وقومه أخذوا أخذاً وبيلاً إلا أن القول الكريم ذكر فرعون دون قومه ؛ لكونه مناسباً لجو الترهيب الذي تقصده الآيات ، ففرعون أكبر رأس في قومه ؛ لأنه تفرعن وادعى الربوبية ، وعصى موسى ـ عليه السلام ـ وقاد حملة طاغية للقضاء عليه وعلى أتباعه ، فأخذه الله أخذاً وبيلاً ، فلم تنصره قوته ، ولا سلطانه ولا جنوده . وفي ترك ذكر قوم فرعون إشارة إلى أنهم تمردوا حتى صار كل واحد منهم كأنه فرعون بنفسه .

وعقب قياسهم إلى فرعون بما حل به فقال : (فأخذناه أخذا وبيلاً) والأخذ في اللغة : خلاف العطاء . والأخذ : التناول [٢] ، وهو هنا مستعمل في الإهلاك مجازاً ، وهذه الصورة توحي بتهديد المخاطبين لأن التعبير بالأخذ عن الإهلاك يوحي بمعان كثيرة ، ويعطي أخيلة متنوعة وصوراً متداخلة ، فالقوي الجبار حين يريد

---

(١) السيد محمد حسين الطباطبائي : الميزان في تفسير القرآن ، لبنان ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، ج٢٠ ص ٦٨ .

(٢) الفيومي : المصباح المنير ، القاهرة المطبعة الأميرية ط ١ سنة ١٩٢٥م ، مادة (أخذ) .

إهلاك الطغاة يسلط عليهم جنوداً لتأخذهم ، كأنهم أشياء لا حول لها ولا قوة ، فمجرد الأخذ إهلاك لهم ، إما من الرعب ، وإما من الضعف ، وإما من رؤية العذاب فكيف إذا قال سنعذبهم ، أو سنهلكهم ؟ .

إن المقصود من قوله : (أخذناه) تهديد كفار مكة ؛ بأنهم إذا لم يطيعوا رسولهم أخذوا أخذاً لا رجعة فيه، ولا بقاء لأثر بعده، مثل أخذ فرعون ومن تبعه ، وأكد الفعل بمصدره ـ أخذاً ـ للدلالة على أن فرعون دمر تدميراً كاملاً . والوبيل : صفة مشبهة من وبل المكان إذا وخم هواؤه ومرعى كلئه [١] أو هو الثقيل الغليظ . ومنه قولهم : صار هذا وبالاً عليه أي : أفضى به إلى غاية المكروه ، ومن هذا قيل للمطر العظيم : وابل . والوبيل : الذي لا يستمرأ . وماء وبيل : وخيم [٢] وهو هنا مستعار لسوء العاقبة ، وأريد به ما أصاب فرعون .

وبعد تهديد المكذبين بالأخذ في الدنيا المستفاد من تمثيل حالهم بحال فرعون مع موسى ـ عليه السلام ـ ، انتقل بهم إلى الوعيد بعقاب أشد ، وهو عذاب يوم القيامة . فقال : (فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً) بالاستفهام الذي أريد به التوبيخ والتعجيز وقد نشأ هذا الاستفهام عن اعتبارهم أهل اتعاظ وخوف من أن يحل بهم الذي حل بأمثالهم فيثير ذلك فيهم تفكيراً في النجاة من الوقوع فيما هددوا به .

وشيب الولدان في هذا اليوم كناية عن شدته وكثرة همومه " كما يقال في اليوم الشديد : يوم يشيب نواصي الأطفال ، والأصل

---

(١) لسان العرب : مادة (وبل) .
(٢) القاموس المحيط ، مادة (وبل) .

فيه : أن الهموم والأحزان إذا تفاقمت على الإنسان أسرع فيه الشيب [١] " كما قال المتنبي :

والهم يخترم الجسيم نحافة

ويشيب ناصية الصبي ويهرم [٢]

فلما كان حصول الشيب من لوازم كثرة الهموم جعل كناية عن الشدة والهول كما قال عبد القاهر : " والمراد بالكناية ههنا أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومىء به إليه ويجعله دليلاً عليه . . . " [٣].

وفي هذه الصورة البيانية تقريع شديد لكفار مكة ، وتهديد وتوبيخ وكأنه يقول لهم : إنكم وإن كنتم أهل جلادة على تحمل عذاب الدنيا فماذا تصنعون في يوم تشيب من هوله الولدان ؟ والكناية دلت على هول الموقف في صورة أبلغ من التصريح ، وأثبتت الهول بطريق أبلغ وآكد وأشد ، وكأنه إثبات بدليل كما قال الشيخ عبد القاهر " والسبب أن كان للإثبات بها مزية لا تكون للتصريح ، أن كل عاقل يعلم إذا رجع إلى نفسه أن إثبات الصفة بإثبات دليلها وإيجابها بما هو شاهد في وجودها آكد وأبلغ في الدعوى من أن تجيء إليها ، وتثبتها هكذا ساذجاً غفلاً وذلك أنك لا تدعي شاهد الصفة ودليلها ، إلا والأمر ظاهر معروف وبحيث لا يشك فيه ، ولا يظن بالمخبر التجوز والغلط " [٤] .

---

(١) الكشاف : ج٤ ص ٩٤١ .

(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي ، بشرح أبي البقاء العكبري ، القاهرة ، مصطفى الحلبي ط الأخيرة سنة ١٣٩١هـ ج٤ ص ١٢٤ .

(٣) دلائل الإعجاز : ص ٦٦ .

(٤) دلائل الإعجاز : ص ٧٢ .

وقد قيل [١] : إن قوله : (يوماً يجعل الولدان شيباً) لا يراد به الكناية ، وإنما هو وصف لليوم بالطول. ولست أرى ذلك ؛ لأن النمو البشري مقياس من مقاييس الدنيا ، ومقاييس الآخرة تختلف عن مقاييس الدنيا. وطول اليوم ليس بمقطوع فيه ، فهو وإن كان طويلاً فعلى الكفار أما غيرهم من المؤمنين والصالحين ، والولدان الذين لم يبلغوا حد التكليف فهو يخفف عليهم كمقدار صلاة مكتوبة كما جاء عن الهادي البشير ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري قال : قيل لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : (يوماً كان مقداره خمسين ألف سنة) ما أطول هذا اليوم ! فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : " والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوب يصليها في الدنيا " [٢] .

وإيصال الألم إلى الولدان في هذا اليوم غير جائز والذي استريح إليه هو جعل هذه الآية (يوماً يجعل الولدان شيباً) كناية عن الشدة والهول بمعنى : " أن الولدان الذين هم الأطفال لو جاز أن يشيبوا لرائع خطب ، أو طارق كرب لشابوا في ذلك اليوم ؛ لعظم أهواله وفظاعة أحواله. وذلك كقول القائل : قد لقيت من هذا الأمر ما تشيب له النواصي كناية عن فظيع ما لاقى " [٣] .

ووقوع الاتقاء على اليوم في قوله : (فكيف تتقون إن كفرتم يوماً) مجاز عقلي ؛ لأن اليوم زمن ليس له تأثير ، وإنما الذي يتقى هو العذاب الحاصل في هذا اليوم، وما اليوم إلا زمن لهذه الشدائد ،

---

(١) الكشاف : ج٤ ص ٦٦٢ .

(٢) أحمد بن حنبل : المسند ، بيروت، المكتب الإسلامي ، ط الخامسة ١٤٠٥هـ ، ج٣ ص ٧٥ .

(٣) الرضي : تلخيص البيان في مجازات القرآن ، القاهرة ، الحلبي ط ١ سنة ١٩٥٥م ص ٣٥٢ ، ٣٥٣ .

أو أن في القول الكريم إيجاز بالحذف بمعنى : فكيف تتقون إن كفرتم عذاب يوم ، وإن كنت أميل إلى جانب المجاز ؛ لأن المقام مقام تهديد ووعيد والمجاز العقلي جيد التصوير في هذا المقام فهو يهول ويبالغ في شدة عذاب هذا اليوم ، حتى كأن الزمن نفسه لم يعد مجرد زمن وإنما عاد مصدراً من مصادر تعذيب الكفار والمكذبين .

وإسناد الفعل (يجعل) إلى ضمير اليوم مجاز عقلي [(١)] علاقته الزمانية ؛ لأن الشيب في هذا اليوم يحدث من أثر الهول والشدة والكرب واليوم زمن لهذه الأهوال ليس له تأثير، لكن الإتيان بالكلام على صورة المجاز العقلي يزيد من هول يوم القيامة ؛ بجعل ما يصيب الناس والولدان في هذا اليوم ليس مقصوراً على ما يحدث من هول وكرب وشدة ، وإنما الزمن يشارك في تلك الشدائد . والتعبير القرآني يوحي بشدة الموقف ، الذي يجعل الزمن ساخطاً على الكفار ناقما على المكذبين مشاركاً في تعذيبهم فهذا اليوم شديد مخيف ينقل الولدان من سن الطفولة فجأة إلى سن الشيخوخة من غير أن يمروا بمراحل العمر المختلفة ؛ لأن " استيلاء الشيب ليس على جميع الرأس فقط وإنما على جميع أجزاء البدن في الضعف ، والنحافة ، وعدم طراوى الوجه " [(٢)] .

وبهذا كان للمجاز العقلي دور في التصوير ، وفي إبراز المعاني لا يقل عن التصوير البياني ، وحسبي ما قاله الإمام عبد القاهر عن هذا المجاز " وهذا الضرب من المجاز على حدته كنز من كنوز البلاغة ومادة الشاعر المفلق ، والكاتب البليغ في الإبداع ،

---

(١) الزركشي : البرهان ، بيروت ، دار المعرفة ج٢ ص ٢٥٧ ، والسيوطي : الإتقان ، ج٣ ص ١١٠ .

(٢) الرازي : التفسير الكبير ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي / ج ٣٠ ص ١٨٤ .

والإحسان والاتساع في طرق البيان ، وأن يجيء بالكلام مطبوعاً مصنوعاً ، وأن يضعه بعيد المرام ، قريباً من الأفهام " [١] .

ثم يأتي بعد ذلك حدث من أحداث الاضطراب الكوني وهو قوله : (السماء منفطر به كان وعده مفعولا) والانفطار: الانشقاق . وتفطر الشيء :تشقق . وأصل الفطر : الشق [٢]. وانفطار السماء، وصف لليوم بالشدة . فالسماء على متانتها وقوة بنائها تنفطر فيه فكيف بغيرها من الخلائق ، وذكر قوله : (منفطر) مع أن السماء في اللغة من الأسماء المعتبرة مؤنثة في الشائع ، إما لأنها مؤنث غير حقيقي فيصح وصفها بالمذكر والمؤنث على السواء ، أو لأن السماء بمعنى السقف. كقوله تعالى : " **وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً** " [٣].

والباء في (به) إما بمعنى (في) أو للسببية ، فتكون السماء ليست منفطرة باليوم نفسه ، وإنما منفطرة فيه أو بسبب شدائده والضمير في قوله : (كان وعده مفعولاً) إما عائد إلى اليوم ، وإضافة المصدر إليه من إضافة المصدر إلى مفعوله ، أو أن الضمير راجع إلى الله ــ سبحانه ــ وحينئذ يكون من إضافة المصدر إلى فاعله ، وعلى هذا فإضافة الوعد إلى ضميره ــ تعالى ــ إشعار بأنه لا يصلح لهذا إلا الله ــ تعالى ــ فيكفي فيه الضمير من غير حاجة إلى ذكره باسمه لكونه ــ تعالى ــ معلوماً [٤].

قوله :" **إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً** "

---

(١) دلائل الإعجاز ، ص ١٩٥ .
(٢) لسان العرب ، مادة (فطر) .
(٣) الأنبياء : ٣٢ .
(٤) انظر : الكشاف ، ج٤ ص ٦٤٢ الطاطبائي : الميزان في تفسير القرآن ، ج ٢٠ ص ٦٩ .

استئناف مؤكد بـ (إن) واسمية الجملة ، والشرط ؛ لكي يطابق حال المخاطبين لأن المخاطبين بهذا الكلام منكرون كون القرآن تذكرة، وهدى ، ومن عند الله ، بل ووسموه بالسحر والأساطير ، والإشارة راجعة إلى الآيات السابقة بما تحوي من القوارع والزواجر، والتذكرة والموعظة ، وفي الآية تحريض على التدبر والتفكر في آيات الله ، وإغلاق لباب المعذرة فها هو ذا جزاء المكذبين قد ظهر فمن خاف من العذاب ، وأراد أن يتخذ إلى ربه سبيلاً فقد تهيأ له اتخاذ السبيل بهذه التذكرة ، وبهذا لم يبق للمتغافل معذرة ٠

والسبيل : هو الطريق الواضح السهل [(١)] ، وهو هنا مستعار للاعتصام بالكتاب والسنة والسير على نهجهما بجامع الوصول إلى المراد في كل ، وهذا تصوير حي لهذا الطريق الموصل إلى النجاة من الأهوال المشار إليها ، وفيه دعوة لسلوك هذا الطريق ، بوصفه طريقا لا لبس فيه ، فإذا سلك على وفق الكتاب والسنة ، وما أجمعت عليه الأمة نجا سالكه من الأهوال ، ومتى زاغ أحد عن ذلك هلك ٠ واللفظ المستعار (سبيلا) غزير الإيحاءات في هذا المقام ، فهو يوحي بوجوب الاستعداد للسير ، وبذل النشاط ، وأخذ الحذر ، ودراسة الموقف ، وتحديد الهدف ، وهذه المعاني هي عناصر العمل الناجح التي تنهي رحلة الحياة في نور الله ، وإلى نور الله ٠

وبرزت الاستعارة هنا كأداة جيدة من أدوات التصوير القرآني حيث ألبست المعقول ثوب المحسوس حين حولت معنى التمسك بالكتاب والسنة إلى شيء واضح ملموس ، معتاد مقرون بصورة السائر إلى غايته في طريق مستقيم ؛ لإلزام الذهن باتخاذ ما ينبغي التزود به من أجل تحقيق الأمل ، والوصول إلى الهدف ٠

---

(١) الراغب الأصفهاني : المفردات ، مادة (سبل) ٠

وبهذا الأسلوب الرائع البديع صورت لنا هذه الآيات التهديد والوعيد ، والعذاب المعد للمكذبين ، وصورت شدة هذا اليوم الذي تشيب من هوله الولدان ، وصورت الآيات أول ما يحدث للكون من دمار وخراب حيث ترج الأرض رجاً شديداً فينهدم كل ما عليها ، وتصاب الجبال بالرج الذي يذيب كل ما فيها من صخور ومعادن ، وأحجار حتى تكون كثيباً مهيلا ، وتزداد شدة هذا اليوم فتنفطر من هوله السماء السميكة المبنية بأيد وإحكام ، ويصيبها التشقق بعد أن كانت قوية متماسكة .

واستخدمت في تلك الآيات ألفاظ مصورة لمعناها مثل ـ أنكالاً جحيما ، غصة ، ترجف ، كثيباً ، وبيلاً ، شيباً ، منفطر . . . وكلها ألفاظ متناسقة مع السياق الذي يعمه جو التهديد والوعيد ، ويساهم في إبراز تلك الصورة إيقاع يكاد يكون على روي واحد ، وهو اللام المطلقة الممدودة " وهو إيقاع رخي وقور جليل يتمشى مع جدية الأمر ومع الأهوال المتتابعة التي يعرضها السياق ، كهول التهديد المروع ، وهول الموقف الذي يتجلى في مشاهد الكون " [١] .

***

سورة التكوير :

يقول الحق جلت قدرته : " **إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ * وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ * وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ**

---

[١] سيد قطب : في ظلال القرآن ، بيروت ، دار الشروق ، ج٦ ص ٣٧٤٣ .

مَا أَحْضَرَتْ " (١) .

هذه الآيات في مجملها تشتمل على " تهديد شديد بيوم الوعيد الذي هو محط الرحال ، لكونه أعظم مقام لظهور الجلال لمن كذب بأن هذا القرآن تذكرة في صحف مكرمة " (٢) ، وهذا التهديد يصور لنا ما يحدث للكون مع قيام الساعة من انقلاب هائل يشمل الشمس والنجوم والجبال والوحوش ، والبحار والسماء ، كما يشمل نفوس البشر ويهز الكون هزاً عنيفاً طويلاً ينتثر فيه كل ما في الوجود ، ولا يبقي شيء إلا تغير وتبدل من هول القيامة .

وافتتاح السورة بـ (إذا) افتتاح مشوق ؛ لأن (إذا) ظرف يستدعي متعلقا ، ولأنها شرط يؤذن بذكر جواب بعده ، فإذا سمعه السامع ترقب ما سيأتي بعده ، فعند ما يسمعه يتمكن من نفسه كمال تمكن ، وإعادة (إذا) بعد واو العطف في كل جملة من الجمل المعطوفة يعد إطناباً اقتضاه قصد التهويل وفيه إشارة إلى أن مضمون كل جملة من هذه الجمل الاثنتي عشرة مستقل بحصول مضمون جملة الجواب بقطع النظر عن تفاوت زمن حصول الشرط ، فإن زمن حصول سؤال الموءودة ونشر الصحف أقرب لعلم النفس بما أحضرت من زمن تكوير الشمس وانكدار النجوم ، وتسيير الجبال (٣) .

والجمل التي جعلت شروطاً لإذا في هذه الآيات مفتتحة بالمسند إليه المخبر عنه بمسند فعلي ، دون كونها جملاً فعلية ــ كما تقتضي إذا ودون تقدير أفعال محذوفة تفسرها المذكورة ، وهذا يريد

---

(١) سورة التكوير : ١ ـ ١٤ .
(٢) البقاعي : مصاعد النظر للإشراق على مقاصد السور ، الرياض ، مكتبة المعارف ط أولى سنة ١٩٨٧م ج٣ ص ١٦١ .
(٣) ينظر : التحرير والتنوير ج ٣٠ ص ١٤٠ .

قول نحاة الكوفة بجواز وقوع شرط (إذا) جملة غير فعلية [1] وهو الراجح لأن (إذا) غير عريقة في الشرط ، والذي لا يقتضي تقدير مقدم على غيره وبخاصة إذا أفاد هذا التقديم تقوية الحكم وتأكيده في جميع تلك الجمل رداً على إنكار منكريه ٠ يقول شيخ البلاغة : " لا يؤتي بالاسم معرى من العوامل إلا لحديث قد نوي إسناده إليه وإذا كان كذلك فإذا قلت : عبد الله فقد أشعرت قلبه بذلك أنك قد أردت الحديث عنه فإذا جئت بالحديث فقلت مثلا : قام ، أو قلت : خرج أو قدم فقد علم ما جئت به ، وقد وطأت له وقدمت الإعلام فيه فدخل على القلب دخول المأنوس به ، وقبله قبول المهيأ له المطمئن إليه وذلك لا محالة أشد لثبوته ، وأنفى للشبهة وأمنع للشك ، وأدخل في التحقيق " [2]٠

تبدأ الآيات بتصوير ما يصيب الشمس يوم القيامة حيث يقول الحق جلت قدرته (إذا الشمس كورت) والتكوير مأخوذ من كورت العمامة : إذا لففتها ٠ والتكوير : الستر والرفع ؛ لأن الثوب إذا أريد رفعه لف وكور ٠ وكور الشيء : إدارته وضم بعضه إلى بعض ككور العمامة [3] وتكوير الشمس : جمع ضوئها ولفها كما تلف العمامة وفي التعبير مجاز ، حيث شبه انقباض ضوء الشمس المنبسط بتكوير العمامة بجامع محو الانبساط في كل ، والاستعارة توحي بأن الشمس سيصيبها دمار شامل ففي سرعة مذهلة وعقب النفخة الأولى يصيبها الدمار فتنكمش ألسنة نارها ، وتنطوي أشعة

---

(١) ينظر : ابن هشام : مغني اللبيب ، ط صبيح ، ت محمد محي الدين عبد الحميد ، ج١ ص ٩٣ ، ومكي بن أبي طالب القيسي : مشكل إعراب القرآن ، دمشق ، دار المأمون للتراث ج٢ ص ٤٤٦ ، ومحي الدين الدرويش : إعراب القرآن وبيانه ، دمشق ، دار الإرشاد ج ٣٠ ص ٣٩٢ ٠

(٢) دلائل الإعجاز : ص ١٣٢ ٠

(٣) لسان العرب : مادة (كور) ٠

ضوئها ، وتختفي معالمها شأن الثوب الملفوف والعمامة المكورة ، وينتج عن هذا التكوير ظلام دامس يعم الوجود. وفي التكوير أيضا كناية عن رفع الشمس وسترها لأن الرفع والستر من لوازم الطي واللف ، فالثوب إذا أريد إزالته لف وطوى ثم رفع ، " ولما كان المهول مطلق تكويرها الدال على عظمة مكورها بني الفعل للمفعول على طريقة كلام القادرين " (١).

وذكر الشمس أولاً : وإتباعها بذكر النجوم في قوله تعالى : (وإذا النجوم انكدرت) ـ من ذكر العام بعد الخاص ، وعلى هذا فالشمس ذكرت مرتين : مرة وحدها وكأنها جنس آخر غير جنس النجوم ، ومرة مندرجة تحت العام وهو النجوم وفي هذا تنويه بشأن الشمس لأنها وإن كانت نجما إلا أنها في مرآى أهل الأرض أكبر النجوم وأشدها نورا وأكبرها حجما فإذا كورت يوم القيامة وانطمس نورها فمن باب أولى انطماس نور غيرها .

قوله : (وإذا النجوم انكدرت) معطوف على سابقه ، ومترتب عليه لأنه إذا محيت الشمس واندثر نورها ، انكدرت النجوم بمعنى : تغيرت وانطمس نورها وانكدار النجوم هو تغير لونها وانطماس نورها والكدرة : ضد الصفاء . والكدرة : في اللون خاصة . والكدرة : في العيش والماء ، والمكدرة من الحوض : طينه أو ما علاه من طحلب (٢) ، والتعبير جاء على المجاز حيث شبهت ظلمة النجوم بكدرة الماء بجامع محو الصفاء والرونق في كل ، والاستعارة توحي بهول ما يصيب النجوم ، فبعد ما كانت زينة للسماء تشبه المصابيح وترسل أشعتها الصافية لأهل الأرض فيهتدون بها في

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ج ٢١ ص ٢٧٥ .
(٢) القاموس المحيط ، مادة (كدر) .

ظلمات البر والبحر ، أصابها الهول فانطفأ بريقها ، وانعدم نفعها ، وعكر صفاؤها .

وبعد ما تحدث القرآن عما يحدث للشمس والنجوم ، وهما في العالم العلوي ، انتقل إلى العالم السفلي . فقال ــ جل شأنه ــ (وإذا الجبال سيرت) بمعنى أزيلت من مكانها وسيرت في الجو، ويعد تسيير الجبال ثاني أحوالها ، إذ يسبق هذا التسيير ، الرجف الذي يصيبها فيجعلها رملاً مهيلاً ، والرجف يؤهلها للتسيير، ويجعلها سريعة الانتشار . وفي العالم السفلي بدأ القرآن بذكر الجبال ؛ لأنها أصلب الأجرام السفلية ، ودل على عظمة القدرة ببناء الفعل (سيرت) للمفعول للتركيز على الحدث ذاته .

قوله : (وإذا العشار عطلت) العشار : جمع عشراء ، وهي الناقة الحامل إذا بلغت عشرة أشهر [١] ، وهي أنفس مكاسب العرب ؛ لذا خصت بالذكر ، وتعطيل العشار تركها مهملة لا راعي لها ولا حافظ يحفظها ، وهذا كناية عن شدة الهول ، وانشغال الناس عن كل شيء والكناية توحي بمدى ما يلاقيه الناس يوم القيامة من الهول والكرب مما يجعلهم يذهلون عن أنفس الأشياء التي كانوا يعتزون بها ، فلا قيمة لأنفس الأشياء وسط هذا الهول وتلك الشدائد .

وقيل إن المراد بالعشار : السحاب المحمل بالمطر [٢] وتعطيلها : عدم إمطارها وعلى هذا القول يكون في الآية استعارة ، حيث شبه السحاب المتوقع إمطاره بالناقة العشراء القريب وضع حملها ، بجامع ترقب النتاج في كل ، وفي كلا القولين ما يشير إلى هول يوم القيامة وهول شدائده .

---

(١) المفردات : مادة (عشر) .

(٢) الألوسي : روح المعاني ، ج٣٠ ص ٥١ ، الطوسي : التبيان : ج١٠ ص ٢٨١ .

قوله : (وإذا الوحوش حشرت) دليل على أن الوحوش تبعث فتحشر حتى يقتص من بعضها لبعض ، وفي ذلك تهويل لكرب هذا اليوم الذي تتجمع فيه الوحوش النافرة الشاردة في الشعاب ، وعند حشرها تتخلى عن طبيعتها العدوانية فالرعب والهول لا يدعان لهذه الوحوش بقية من طباعها وخصائصها (١).

قوله : (وإذا البحار سجرت) بمعنى ملئت . يقول : سجره وسجره : كلأه وسجرت النهر : ملأته . والمسجور من كلام العرب المملوء . وقد سجرت الإناء ، وسجرته : إذا ملأته. وسجر التنور: أوقده وأحماه (٢) . وفي تسجير البحار قالوا (٣) : إما : أنها ملئت حتى فاضت ، فانفجرت بعد ذلك كما صورها الحق في موضع آخر بقوله : " **وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ** " (٤) ، ~~وإما : أنها ملئت نيرانا~~ تضطرم . والذي أميل إليه : أنها تملأ فتفيض حتى يتجاوز ماؤها معدل سطحها تمهيدا لتفجيرها واختلاط بعضها ببعض كما في آية الانفطار .

قوله : (وإذا النفوس زوجت) المراد بتزويج النفوس: إما اقتران الأرواح بالأجساد ، وإما صيرورتها ثلاثة أزواج كما قال ـ سبحانه ـ : " **وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ** " (٥) .

---

(١) انظر : روح المعاني ، ج ٣٠ ص ٥٢ ، الظلال ، ج٦ ص ٣٨٣٩ .
(٢) لسان العرب : مادة (سجر) .
(٣) الكشاف ج٤ ص ٧٠٧ ، البيضاوي : أنور التنزيل وأسرار التأويل : ج٤ ص ١٧٥ .
(٤) الانفطار : ٣ .
(٥) الواقعة : ٧ ـ ٩ .

قوله : (وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت) الموءودة : هي المقتولة والوأد : دفن الطفلة وهي حية وإثقالها بالتراب [١]، وتلك عادة الجاهلية " فالرجل إذا ولدت له بنت ، وأراد أن يستحييها ألبسها جبة من صوف أو شعر لترعي له الإبل والغنم في البادية ، وإن أراد قتلها تركها حتى إذا بلغت قامتها ستة أشبار يقول لأمها : طيبيها وزينها حتى أذهب بها إلى أقاربها ، وقد حفر لها بئرا في الصحراء ، فيبلغ بها إلي البئر فيقول لها انظري فيها ثم يدفعها من خلفها ، ويهيل عليها التراب حتى تستوي البئر بالأرض ،وقيل : كانت الحامل إذا قربت حفرت حفرة فتمخضت عليها ، فإذا ولدت بنتا رمتها في الحفرة ، وإذا ولدت ابنا أمسكته " [٢] .

وكان العرب يفعلون ذلك خشية العار من إغارة العدو عليهم فيسبي نساءهم ، أو خشية الإملاق في سنوات الجدب فالذكر يحتال للكسب بالغارة وغيرها ، والأنثى عالة على أهلها .

يقول الحق : " وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ *يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ " [٣] ويقول سبحانه : " وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا " [٤].

وفي توجيه السؤال للموءودة دون الوائد ــ مع أن الذنب له دونها ــ إظهار لكمال الغيظ والسخط لوائدها ، وإسقاط له عن درجة الخطاب ، والمبالغة في تبكيته " فإن المجني عليه إذا سئل بمحضر

(١) الراغب الأصفهاني : المفردات ، مادة (وأد) .
(٢) التفسير الكبير ، ج ٣١ ص ٦٩ .
(٣) النحل : ٥٨ ، ٥٩ .
(٤) الإسراء : ٣١ .

الجاني ، ونسبت إليه الجناية دون الجاني ، كان ذلك بعثا للجاني على التفكير في حال نفسه ، وحال المجني عليه ، فيرى براءة ساحته ، وأنه هو المستحق للعتاب والعقاب ، وهذا نوع من الاستدراج واقع على التعريض " (١).

وخص سؤال الموءودة بالذكر دون غيره مما يسأل عنه المجرمون يوم الحساب ؛ لأن أفظع الذنوب إزهاق الأرواح ، وأفظع من ذلك اعتداء الآباء على أرواح أبنائهم بالوأد ، فإن الله جعل في الفطرة حرص الآباء على حياة أبنائهم ، وجعل الأبوين سببا في إيجاد الأبناء فالوأد أفظع أعمال أهل الشرك . وجملة (بأي ذنب قتلت) بيان لجملة (سئلت) ، وإنما سئلت عن تعيين الذنب الموجب لقتلها دون أن تسأل عن قاتلها ؛ لزيادة التهديد ؛ " لأن السؤال عن تعيين الذنب مع تحقق الوائد ــ الذي يسمع ذلك السؤال ــ أن لا ذنب لها ؛ إشعار للوائد بأنه غير معذور فيما صنع بها " (٢).

قوله : (وإذا الصحف نشرت) هي صحف الأعمال التي سجل فيها عمل ابن آدم في الدنيا ، تطوى عند موته ثم تنشر عند الحساب والنشر : خلاف الطي. تقول نشر الثوب ، والصحيفة ، والسحاب والنعمة ، والحديث : أي بسطها (٣)، ونشر الصحف في الآية إيحاء بكشفها ومعرفة أسرارها ، فلا تعود خافية ، ولا غامضة، ولا مقصورة على صاحبها بل تنشر الصحائف أمام الجميع ، وهذا النشر يدل على الهول الشديد الذي يلحق بنفوس البشر عند ما ترى أعمالها صغيرها وكبيرها مكتوبة في هذه الصحف " فكم من سوأه يخجل صاحبها منها في نفسه ، ويرجف ويذوب من كشفها ، فكيف

---

(١) روح المعاني ، ج٣٠ ص ٥٣ .

(٢) ابن عاشور : التحرير والتنوير ، ج٣٠ ص ١٤٦ .

(٣) الفيروز آبادي : القاموس المحيط ، مادة (نشر) .

إذا رآها منشورة حاضرة مشهودة ·· إن صحف الإنسان تنكشف للحجة والحساب كما ينكشف الكون بأرضه وسمائه " [١] ، وهذا النشر يعد لونا من ألوان الهول في ذلك اليوم ، كما أنه سمة من سمات الانقلاب الذي يحدث في هذا اليوم ، حيث يكشف المخبوء ، ويظهر المستور ، ويفتضح المكنون ·

وذكر سؤال الموءودة ، ونشر الصحف في سياق أحداث الاضطراب الكوني ، مرتبط بجو الإنذار والترهيب لهؤلاء المكذبين برسالة النبي – صلى الله عليه وسلم – الواسمين له بالجنون ومتناسق مع هذه الأحداث تمام التناسق في إشاعة جو من الترهيب في قلوب المكذبين ، كأنه يقول لهم : إنكم ستسألون عن أفعالكم الإجرامية وستنشر صحائفكم ، وتكشف أعمالكم ليس في يوم عادي وإنما في يوم كورت شمسه ، وانكدرت نجومه ، وسيرت جباله ، وعطلت عشاره وسجرت بحاره ، وكشطت سماؤه ، فالقلوب حينئذ تفيض رعبا وفزعا من الأهوال التي تحدث للكون ، ثم تجد نفسها أمام هول أشد وأفظع وهو هول السؤال والحساب ، ونشر الصحف ، وظهور الأعمال ·

قوله : (وإذا السماء كشطت) · الكشط : هو القلع والنزع· تقول : كشط الغطاء عن الشيء ، والجلد عن الجزور ، والجل عن ظهر الفرس : قلعه ونزعه وكشفه عنه· وكشطت البعير كشطا ، نزعت جلده عنه [٢] ، وكشط السماء : نزعها تمهيدا لطيها بعد أن أصيبت بالضعف والتشقق كما جاء في سورة المزمل · وعلى هذا فكشط السماء مستعار لإزالتها بجامع الانكشاف في كل ، والاستعارة

---

(١) الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن ج ٣٠ ص ١٥٥ ·
(٢) لسان العرب : مادة (كشط) ·

توحي بقوة ما يصيب السماء من أحداث فهي القوية المتينة ، وإزالتها تكون عن شدة كأنها جلد يكشط ، وينتزع انتزاعا وفي ذلك إيحاء " بتبديل الأنظمة العلوية ، حتى يرى الإنسان السماء غير السماء كما يرى البدن المكشوط بغير شكله السابق " [١] .

قوله : (وإذا الجحيم سعرت) . الجحيم اسم من أسماء النار وكل نار عظيمة في مهواة فهي جحم . والجحيم : النار الشديدة التأجج [٢] وتسعيرها : إيقادها كي تتهيأ لعذاب من حق عليهم العذاب وقوبلت الجحيم بالجنة في قوله : (وإذا الجنة أزلفت) والجنة علم بالغلبة على دار النعيم . وقوله : (أزلفت) أي : قربت من أهلها ، وفي هذا كناية عن كرامة أهل الجنة ، فهي تسعى إليهم ولا يسعون إليها وتقرب إليهم فلا يتعبون في الوصول إليها ، واللفظة (أزلفت) توحي بشدة اشتياق الجنة إلى أهلها ، فهي لا تطيق انتظارهم بل تسعى للقائهم .

وإطالة ذكر تلك الجمل ، فيه تشويق للجواب وهو قوله : (علمت نفس ما أحضرت) ، والحضور : نقيض الغيب . وقد حضر الرجل حضورا وأحضره غيره [٣] ، وهذا الجواب يتنازع التعلق به كلمات (إذا) المتكررة ، والمعنى : إذا حدثت تلك الأمور المهولة في هذا الكون الفسيح المتين ، علمت حينئذ كل نفس ما أحضرت من صالح أو طالح لأن عمل كل إنسان سيكون أمامه ظاهرا منكشفا في كتاب يلقاه منشورا " وفي ذلك تحذير للنفس البشرية أن تحضر شرا، وتهييج لها أن تحضر خيرا " [٤].

---

(١) الشيرازي : تقريب القرآن إلى الأذهان ، ج ٣٠ ص ٥٩ ، ٦٠ .
(٢) لسان العرب ، مادة (جحم) .
(٣) الجوهري : الصحاح ، مادة (حضر) .
(٤) سعيد حوي : الأساس في التفسير ، القاهرة : دار السلام ط الأولى ١٩٨٥م ج ٢١ ص ٣٦٩٣ .

وبعد : فقد صورت لنا هذه الآيات ما يحدث للكون من دمار مع قيام الساعة ، في أسلوب قوي مترابط ، وألفاظ دقيقة معبرة عن غرض السورة ، ومصورة للهول والكرب الذي يصيب الكون ، ومتناسقة مع الأسلوب ، فهي جيدة الإيحاء ، تكاد تدور حول الظهور والبيان والانكشاف ، فالشمس تكور ، وتلف أشعتها ، وتزال عن مكانها والنجوم تنكدر ، والجبال تسير فتبرز الأرض منكشفة ، والعشار تظهر بلا حاجب ولا راع ، والوحوش تظهر من أوكارها وجحورها ذاهلة من شدة الفزع والبحار تملأ حتى يفيض الماء على سطحها ، والنفوس تخرج جماعات وسط هذا الهول ، والموءودة تسأل أمام قاتلها ، كي ينكشف إجرامه وذنبه ، والصحف تنشر فيظهر ما فيها على العيان والسماء تكشط فيظهر ما وراءها ، والجحيم تسعر والجنة تقرب ، وكل عمل يظهر جزاؤه .

هذا الظهور ، وهذا الانكشاف الذي يبدو من أسلوب الآيات يجعل يوم القيامة بأهواله وانقلاباته الكونية كأنه رأي العين ، وقد استلهم البيان النبوي هذا المعنى فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي العين فليقرأ : إذا الشمس كورت وإذا السماء انفطرت ، وإذا السماء انشقت) [1].

والإيقاع العام للآيات قوي عنيف جاء على روي واحد هو التاء الساكنة ؛ ليتناسب مع عنف الأحداث وهولها ، فالإيقاع أشبه " بحركة جائحة تنطلق من عقالها فتقلب كل شيء ، وتنثر كل شيء ، وتهيج الساكن ، وتروع الآمن ، وتذهب بكل مألوف ، وتبدل كل معهود ، وتهز النفس البشرية هزا طويلا عنيفا ، يخلعها من كل ما

---

(١) أحمد بن حنبل : المسند ، بيروت ، المكتب الإسلامي ط ٥ ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م ج٢ ص ٢٧ .

اعتادت أن تسكن إليه فإذا هي في عاصفة الهول المدمر الجارف ريشة لا وزن لها ولا قرار ولا ملاذ لها ولا ملجأ إلا في حمى الواحد القهار الذي له وحده البقاء والدوام ، وعنده وحده القرار والاطمئنان " (١) .

***

سورة المرسلات :

قال – تعالى – : " **فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ** " هذه الآيات تمثل تطورا في أحوال النجوم والسماء والجبال في بداية يوم القيامة .

فالنجوم تطمس والطمس : هو الدروس والانمحاء وطَمَسَ الطريق : درس وأمحى أثره . وطموس البصر : ذهاب نوره . والطمس : استئصال أثر الشيء (٢). وطمس النجوم ، إما : استئصال أثرها ومحوها بالكلية ، وإما محو نورها . والأول أولى ، لأن محو نور النجوم يعد أول ما يصيبها من أحداث يوم القيامة ، وقد صور في قوله " **وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ** " (٣) ، ثم يأتي بعد ذلك الحدث المترتب عليه وهو تهاويها مظلمة واستئصالها بالكلية ، وهو قوله : (فإذا النجوم طمست) وبهذا يكون تدمير النجوم قد بدأ بانكدارها ثم انتهى بانطماسها ومحو ذاتها فلم يبق لها أثر .

والسماء يصيبها الخلل (وإذا السماء فرجت) والفَرْجُ والفُرْجَةُ الخلل بين الشيئين . والجمع فُرُوج وفرج الوادي : ما بين عدوتيه. وفتحات الأصابع يقال لها : التفاريج . والفرج : ما بين

---

(١) في ظلال القرآن : ج٦ ص ٣٨٣٧ .
(٢) لسان العرب : مادة (طمس) .
(٣) التكوير : ٢ .

اليدين والرجلين ٠ وجرت الدابة ملء فروجها : وهو ما بين القوائم ٠ والفرجة تكون في الجدار والباب [١]٠ وقوله : (فرجت) بمعنى : شقت ، والفروج المذكور هنا ليس هو الانفطار المذكور في قوله : " السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً " [٢] ؛ لأن الانفطار في آية المزمل يعد أول ما يصيب السماء من أحداث يوم القيامة ، وهو عبارة عن شقوق تظهر في السماء نتيجة لضعفها ووهيها ، وبتتابع الأحداث تتسع هذه الشقوق حتى تصير فتحات واسعة وهذا ما أجاد السياق التعبير عنه بقوله : (فرجت) ، ليصور تطور ما يصيب السماء في هذا اليوم ؛ لأنه لا يقال للشقوق فروجا إلا إذا اتسعت ٠

والجبال يصيبها النسف (وإذا الجبال نسفت) والنسف : هو القلع والإزالة بسرعة والنسف : انتساف الريح الشيء كأنها تسلبه ونسف الشيء : غربلته والمنسفة : آلة النسف وهي الغربال [٣]، ونسف الجبال كنسف الحب وتطييره في الهواء ليتخلص من تبنه [٤]، فالجبال تنسف بسرعة وشدة وتطير في الهواء وتفرق ، وهذا نوع من التطور في الأحداث التي تصيب الجبال ، فأول ما يصيبها من أحداث يوم القيامة هو الرجف الشديد الذي يفتتها ، ويجعلها كالكثيب المهيل وصور هذا في المزمل ٠ وثاني ما يصيبها : التسيير ، أي تنزع من فوق الأرض لتسير في الجو وهذا صور في التكوير ، وثالث ما يصيبها النسف ، أي تنسف نسفا وهي في الجو بحيث تتفرق كما يتفرق الحب إذا نسف ٠

---

(١) لسان العرب ، مادة ، (فرج) ٠
(٢) المزمل : ١٨ ٠
(٣) لسان العرب ، مادة (نسف) ٠
(٤) انظر : حاشية شيخ زادة على البيضاوي، تركيا ، المكتبة الإسلامية ، ج٤ ص ٥٩٨ ٠

وإزالة الجبال ونسفها يوحي باشتداد الريح بها في يوم عاصف بحيث إذا سيرت في الجو تلاعبت بها الريح العاصفة فنسفتها، وفرقتها وهذا التصوير بما فيه من إيحاءات يتناسب مع مطلع السورة المستهلة بالقسم بالرياح حين تهب متتابعة ... ثم يشتد هبوبها وعصفها فتخرب الديار وتغير الآثار ، فما وصل إليه حال الجبال هنا يتناسب مع مطلع السورة وسياقها ، إذ إن الجبال لا ينزعها من مكانها ، ولا يسيرها في الجو، ولا ينسفها ويفرقها إلا الرياح العاصفة . وكل ذلك بقدرة الله سبحانه وتعالى .

وجاء تكرير (إذا) في أوائل الآيات بعد حروف العطف؛ " لإفادة الاهتمام بمضمون كل جملة من هذه الجمل ، ليكون مضمونها مستقلا في جعله علامة على هول ما يحدث للكون في بداية اليوم الآخر " [١] وبنيت الأفعال الثلاثة ــ طمست ، فرجت ، نسفت ــ للمجهول ؛ لأن المقصود الاعتبار بحصول الفعل لا تعيين فاعله على أنه من المعلوم أن الفاعل هو الله إذ لا يقدر على ذلك غيره ، جلت قدرته .

وسياق الآيات تبدو فيه السرعة ، والأسلوب العنيف ، والألفاظ المصورة لمعناها ، المعبرة عن انفراط عقد هذا الكون انفراطا مصحوبا بفرقعة ودوي ، وانفجارات هائلة لا عهد للناس بها، مما يدل على شدة هذا اليوم وقسوة أهواله ، وهذا يتناسب مع جو السورة الذي يحذر المكذبين ، ويعدهم بالويل في هذا اليوم الذي طمست نجومه ، وفرجت سماؤه ، ونسفت جباله .

وفي شأن الجبال يقول الحق : " **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً * فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا**

---

(١) التحرير والتنوير ج ٢٩ ص ٤٢٤ .

أَمْتاً " (١) .

هذا القول الكريم يرد على شبهة من شبهات الكفار كانوا يسألون عنها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ سؤال تعنت لا سؤال استرشاد لأنهم كانون ينكرون نهاية الكون ، وينكرون البعث ، ويقولون : فأين تكون هذه الجبال التي نراها شامخة قوية ؟ وسواء أكان سؤالهم سؤال استرشاد أم استهزاء فقد أنبأهم الله بمصير الجبال ، إبطالا لشبهتهم وتعليما للمؤمنين ، وجاء الجواب مبدوءا بالفاء (فقل) " وكل سؤال في القرآن يكون جوابه (قل) على طريق الاستئناف بدون فاء إلا هذا لأن المعنى : إن سألوك عن الجبال (فقل) فتضمن الكلام معنى الشرط وقد علم الحق أنهم يسألونه عنها فأجابهم قبل السؤال " (٢) .

وخص السؤال عن الجبال ، " لأنها أشد الأشياء قوة ، وأطولها لبثا ، وأبعدها مكثا " ونسف الجبال صور في المرسلات إلا أنه جاء هنا مؤكدا بمصدره ، ليتناسب الجواب مع مقام الإنكار . والتنكير في قوله : (نسفا) يدل على عظم هذا النسف وهوله ، وأنه أمر غير معهود ، إذ إنه يبدد الجبال الضخمة الشاهقة في الجو .

والضمير في قوله : ـ (فيذرها قاعا صفصفا) يعود على الأرض المدلول عليها بقرينة الحال أنها الباقية بعد نسف الجبال. والقاع : هو المستوى الصلب من الأرض . والصفصف : المستوى الأملس من الأرض كأنه على صف واحد (٣) وعلى هذا فإن (صفصفا) قريب في المعنى من (قاعا) فهو كالتأكيد له. قوله :

---

(١) طه : ١٠٥ ـ ١٠٧ .

(٢) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، بيروت ، إحياء التراث العربي ط ١٩٦٥م ج ١١ ص ٢٤٤ .

(٣) المفردات : مادة (قيع) .

(لا ترى فيها عوجا ولا أمتا) حال مؤكد [١] لمعنى (قاعا صفصفا) جاء لزيادة التهويل ٠ والأمت : الانخفاض والارتفاع والاختلاف في الشيء ٠ والأمت الوهدة بين كل نشزين [٢] والأمت في الآية مقصود به الوهدة اليسيرة وتنكير (عوجا) و(أمتا) جاء للتقليل ، ليفيد المبالغة في استواء الأرض بعد إزالة الجبال عنها ٠

والعوج بالكسر يكون في المعاني ، والعوج بالفتح يكون في الأعيان ، والأرض عين فكيف صح فيها المكسور العين ؟ يجيب عن هذا السؤال الإمام الزمخشري فيقول : " اختيار هذا اللفظ له موقع حسن بديع في وصف الأرض بالاستواء والملاسة ، ونفي الاعوجاج عنها على أبلغ وجه ، وذلك أنك لو عمدت إلى قطعة أرض فسويتها وبالغت في التسوية على عينك وعيون البصراء ، واتفقتم على أنه لم يبق فيها اعوجاج قط ، ثم استطلعت رأي المهندس فيها ، وأمرته أن يعرض استواءها على المقاييس الهندسية ، لعثر فيها على عوج في غير موضع لا يدرك ذلك بحاسة البصر ، ولكن بالقياس الهندسي فنفي الله ـ عز وجل ـ ذلك العوج الذي دق ولطف عن الإدراك اللهم إلا بالقياس الذي يعرفه صاحب التقدير والهندسة ، وذلك الاعوجاج لما لم يدرك إلا بالقياس دون الإحساس لحق بالمعاني فقيل فيه : عوج بالكسر " [٣] ٠

وفي إطار حديث القرآن عما يحدث للكون في بداية اليوم الآخر يقول الحق : " **يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ** " [٤] فهذه الآية

---

(١) العكبري : إملاء ما من به الرحمن ، بيروت ، دار الكتب العلمية ط الأولى ١٩٧٩م ج٢ ص ١٢٧ ٠

(٢) لسان العرب ، مادة (أمت) ٠

(٣) الكشاف : ج٣ ص ٨٨ ٠

(٤) الأنبياء : ١٠٤ ٠

الكريمة تصور حدثا من الأحداث التي تصيب السماء حيث تطوي كطي السجل للكتب ٠ والسجل : يطلق على الصحيفة التي يكتب فيها، ويطلق على كاتب الصحيفة [١] " ولا يحسن هنا حمله على معنى الصحيفة ، لأنه لا يلائم إضافة الطي إليه ، ولا إردافه بقوله : (للكتب) فالوجه أن يراد بالسجل : الكاتب الذي يكتب الصحيفة ، ثم يطويها عند انتهاء كتابتها وذلك عمل معروف " [٢]، وفي هذا إشارة إلى ما يصيب السماء من ضعف ووهن نتيجة لشدائد اليوم الآخر وأهواله ، والآية الكريمة استعملت التشبيه لتصوير ما يصيب السماء في هذه المرحلة ، حيث شبهت طي السماء بطي الصحيفة ، والوجه هو السهولة واليسر ، إذا السماء سهلة الطي في يد القادر كسهولة طي الصحيفة في يد الكاتب والتشبيه يوحي بانطماس معالم السماء ، واختفاء سماتها كما يختفي مكتوب الصحيفة حين تطوي فلا يظهر له أثر ، وفي هذا إشارة إلى قدرة الله تعالى التي تطوي السماء على صلابتها وسمكها، فهي مع قدرته كصحيفة تطوى ٠

قوله : (كما بدأنا أول خلق نعيده) ظاهر ما أفادته الكاف من التشبيه أن إعادة خلق الأجسام شبهت بابتداء خلقها، في تناول القدرة لهما على السواء ، وكل خلق جل أو قل سواء في هذا الحكم ، وهو أنا نعيده غير ناسين له ، ولا غافلين عنه ، ولا عاجزين أمامه، فالقدرة التي تطوي السماء على شدة بنائها وقوة إحكامها ، لا تعجزها إعادة الخلق ، فالإعادة أهون من البداية والحاصل أن من أوجد شيئا لا يبعد عليه التصرف فيه كيفما يشاء ٠ وعقب الحق ذلك بما يفيد تحقق حصول البعث ، فقال : (وعدا علينا) أي : أن إعادة الخلق وعد على الله ، والله لا يخلف وعده ، ثم قال : (إنا كنا

---

(١) لسان العرب ، مادة (سجل) ٠

(٢) التحرير والتنوير ، ج ١٧ ص ١٦٠ ٠

فاعلين) تأكيدا لما أنكروه ، وبالغوا في إنكاره ، وهو إعادة الموتى كما كانوا • وبهذا ينسجم مضمون هذه الآية مع سياق السورة بوصفه تهديدا لمن ظلوا في غفلتهم معرضين عن الذكر ، لاهين عن الحق ، ناسبين لله الولد ، مستهزئين بوعد الله الحق كما قال — عز وجل — : " وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ " (١) .

وإذا كانت الجبال قد أفردت بحديث في سورة طه ، والسماء قد أفردت بحديث في سورة الأنبياء فإن سورة الطور تجمعهما في قول الله — تعالى — : " إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ * يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً " (٢) فهذه الآيات تأتي بعد قسم من الله — سبحانه — بمقدسات في الأرض والسماء بعضها مكشوف معلوم وبعضها مغيب مجهول ، والغرض من هذه الآيات بل من السورة كلها هو" تحقق وقوع العذاب الذي هو مضمون الوعيد المقسم على وقوعه في الذاريات " (٣) .

قوله : (إن عذاب ربك لواقع ، ما له من دافع) تأكيد على وقوع العذاب بالكافرين ، فهو واقع حتما لا يملك رفعه أحد أبدا ، وإيقاع الآيتين حاسم قاطع يصور لنا العذاب بأنه أمر داهم ليس منه واق ولا عاصم ، وفي إضافة العذاب إلى صفة الإحسان تصوير لقبح الذنب الذي أغضب المحسن فهددهم بهذا العذاب الداهم ، لأن الرب هو المحسن المربي الذي يتجاوز عن السيئات ، فغضبه يشير إلى عظيم اقترف وهو هنا كفر المجرمين ، وإنكارهم للبعث ، وشكهم في قدرة الله ، فكان التهديد الشديد مناسبا للذنب العظيم •

(١) الأنبياء : ٣٨ •
(٢) الطور : ٧ ـ ١٠ •
(٣) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور ، ج٣ ص ٢٨ •

وفي إضافة صفة الإحسان لكاف الخطاب أمان له ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذ لو قال : " (إن عذاب الله لواقع) ـ واسم الله يدل على العظمة والهيبة ـ ؛ لأحدث ذلك خوفا للمؤمنين ، بل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أن يلحقه العذاب ؛ لكونه تعالى مستغنيا عن العالم بأسره فضلا عن واحد فيه ؛ لذا أمن رسوله بقوله: (ربك) فإنه حين يسمع لفظة الرب يأمن " [١]٠

والتعبير عن وقوع العذاب جاء مؤكدا بـ (إن) واسمية الجملة واللام ليتناسب مع مقام إنكار البعث والعذاب ٠ وقوله(لواقع) أي : لحاصل على وجه الاستعارة بجامع التحقق والثبوت في كل ، والاستعارة تصور لنا العذاب بأنه شيء مرتفع مهيأ للوقوع على من حل به والأسلوب بهذا الإيحاء يبث الرعب والفزع في قلوب المنكرين المكذبين ٠

قوله : (ما له من دافع) أي : ما للعذاب الواقع من دافع يدفعه والدفع : الإزالة بقوة ، ومنه تدافع القوم الشيء : أي دفعه كل واحد منهم عن صاحبه ، والدفع هنا أطلق على الوقاية مجازا بجامع انعدام النصير والشفيع والمجير ، وفي هذا ترهيب للمكذبين بأن العذاب واقع بهم لا محالة ، ولا أحد يستطيع دفعه أو معارضته ، وزيدت (من) في سياق النفي لتفيد عموم نفي جنس الدافع ؛ وهذا العذاب المحقق الذي ليس له دافع يهيب بهؤلاء المكذبين أن يرجعوا إلى الله ، وأن يصدقوا رسوله وأن يصلحوا العمل كي تكتب لهم النجاة من هذا العذاب الواقع ٠

ولما أثبت العذاب الواقع بين وقته فقال ـ تعالى ـ : (يوم

---

(١) التفسير الكبير ، ج ٢ ص ٢٤٢ ٠

تمور السماء مورا ، وتسير الجبال سيرا) ٠ والمور من مار الشيء يمور مورا : إذا تحرك وجاء وذهب بسرعة ، ومنه مارت الناقة في سيرها : ماجت وترددت [١] ومور السماء اضطراب جسمها وتحركها بسرعة في جهات مختلفة ، ويعد هذا تطورا لما يصيبها من أحداث فأول أحداثها : الانفطار ، وثانيها : الفروج ، وثالثها : الكشط ٠ ورابعها: الطي ٠ وخامسها : المور ٠ والمور مرتبط بالأحداث السابقة بوصفه مترتبا عليها إذ الانفطار الناتج عن ضعفها ووهيها ٠ يزداد ويتسع حتى يصبح فروجا وهذا يؤهلها للكشط ، والكشط يؤدي إلى الطي ، والطي يؤدي إلى المور وهو الحركة السريعة المائجة ٠

وسير الجبال أي : انتقالها من مواضعها ومرورها مرا سريعا وهذا التسيير هو المشار إليه في قوله : " وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ " [٢] إلا أنه هنا أكد بمصدره ، للدلالة على أنه سير بديع لا يعلم كنهه إلا الله فهو عظيم يتناسب مع عظم جرمها ٠ يقول أبو السعود : " وأكد الفعلين بمصدريهما ــ مورا ، سيرا ــ لغرابتهما وخروجهما عن الحدود المعهودة فهو مور عجيب ، وسير بديع لا يدرك كنههما إلا الله " ويقول سيد قطب : " وتصوير السماء الثابتة المبنية ، وهي تضطرب وتتقلب كما يضطرب الموج في البحر ، وتتقلب السفينة في الموج وتصوير الجبال الراسية الصلبة وهي تسير خفيفة دقيقة لاثبات لها ولا استقرار أمر مذهل مزلزل يدل ضمنا على الهول الذي تمور فيه السماء ، وتسير منه الجبال فكيف بالمخلوق الإنساني الصغير الضعيف في ذلك الهول المذهل المخيف " [٣] ٠

(١) لسان العرب ، مادة (مور) ٠
(٢) التكوير : ٣ ٠
(٣) في ظلال القرآن ، ج ٦ ص ٣٣٩ ٠

سورة الحاقة :

يقول الحق : " **فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ** " (١) .

هذه الآيات تصور الوقائع والشدائد التي تحدث للكون عند النفخ في الصور ، حيث يدمر العالم بحمل الأرض والجبال ودكهما دكة واحدة وانشقاق السماء ، والمراد بالنفخة في هذه الآيات هي النفخة الأولى التي عندها يتم تدمير الكون بأكمله . وبني قوله (نفخ) للمجهول ، للدلالة على هوان ذلك على الله ، وللتركيز على أثر النفخ ، وبني قول : (حملت) (دكتا) للمجهول ؛ لأن الغرض متعلق ببيان المفعول ، لا الفاعل والإتيان بهذه الأفعال على صيغة المضي؛ للدلالة على تحقق وقوعها . " أما نفخة واحدة ودكة واحدة، فإنما جيء بلفظ الواحدة فيهما وقد علم أن النفخة هي واحدة، والدكة هي واحدة ؛ لمكان نظم الكلام ؛ لأن السورة التي هي (الحاقة) جارية على هذا المنهاج في توازنها السجعي ، ولو قيل : (نفخة) من غير واحدة ــ ودكة ــ من غير واحدة ــ ثم قيل بعدهما: (فيومئذ وقعت الواقعة) لكان الكلام منثورا محتاجا إلى تمام " (١) أي : إلى تمام يكمل به التوازن .

وقد اعترض أستاذنا الدكتور / فريد النكلاوي على ما ذكره ابن الأثير في معرض تقييمه لهذا البحث فكتب ما نصه :

" ليس ذكر (الواحدة) لمجرد النظم والفاصلة بل لبيان عظم

---

(١) الحاقة : ١٣ ـ ١٧ .

(١) ابن الأثير : المثل السائر ، القاهرة ، نهضة مصر ، ط الثانية ج٢ ص ٣٥٠

القدرة وأن كل حركة من هذه الحركات لا تحتاج لإعادتها لقوة تأثيرها وتحقق المراد منها " وأنا مع أستاذي في هذا الرأي وإن كنت لا أمنع ما قاله ابن الأثير ٠

ولما كان حمل الأرض والجبال ودكها شيء يعظم مثاله ، ويعز الوصول إليه ، ومن الممكن أن يعارض ، أفاد الإطناب بلفظة (واحدة) في الآيتين التأكيد على هذا الحدث ، وأنه سهل يسير على الله ـ جلت قدرته ـ يمضي الأمر فيه بنفخة واحدة ، ودكة واحدة ٠ يقول ابن الأثير : " إن النفخ في الصور الذي تقوم به الأموات من القبور مهول عظيم ، دل على القدرة الباهرة ، وكذلك حمل الأرض والجبال ، فلما كانا بهذه الصفة قيل فيهما : (نفخة واحدة) و(دكة واحدة) أي أن هذا الأمر المهول العظيم سهل يسير على الله تعالى يفعل ويمضي الأمر فيه بنفخة واحدة ، ودكة واحدة ، ولا يحتاج فيه إلى طول مدة ، ولا كلفة مشقة ، فجيء بذكر الواحدة لتأكيد الإعلام بأن ذلك هين سهل على عظمه " [١] ٠

وصورة حمل الأرض والجبال ، ونفضهما ، ودكهما دكة واحدة يسوي عاليهما بسافلهما صورة مروعة ، فهذه الأرض التي يجوس خلالها الإنسان آمنا مطمئنا وهي تحته مستقرة ، وهذه الجبال الراسية الوطيدة الراسخة التي تهول الإنسان بروعتها واستقرارها ، هذه مع هذه تحمل فتدك كالكرة في يد الوليد ، إنها صورة يشعر معها الإنسان بضآلته وضآلة عالمه إلى جانب هذه القدرة القاهرة في ذلك اليوم العظيم [٢].

قوله : (فيومئذ وقعت الواقعة) التنوين في (يومئذ) كرة

---

(١) المرجع السابق ، ج٢ ص ٣٤٩ ٠

(٢) انظر : في ظلال القرآن ، ج٦ ص ٣٦٧٩ ٠

راجعة إلى النفخ في الصور وحمل الأرض والجبال ودكهما ، فالتنوين عوض عن الآيتين السابقتين ، بمعنى : يوم إذ ينفخ في الصور نفخة واحدة ، وتحمل الأرض والجبال فتدكا دكة واحدة فقد وقعت الواقعة . والواقعة : وصف من أوصاف القيامة ، وصفت به لأنها لابد واقعة كأن طبيعتها وحقيقتها الدائمة أن تكون واقعة ، وهو وصف ذو إيحاء معين مقصود في صد الارتياب فيها ، والتكذيب بها، والإعراض عنها .

قوله : (وانشقت السماء فهي يومئذ واهية) أي ضعيفة مسترخية ، ليس فيها تماسك ولا صلابة ، فالشيء لا ينشق إلا لخلل فيه وانشقاق السماء أثر من آثار الواقعة. قوله (والملك على أرجائها) أي : على أطرافها والملك أعم من الملائكة ، لأن لامه للجنس والسماء مسكن الملائكة فإذا انشقت وقفوا على أطرفها فزعا مما داخلهم من هول ذلك اليوم .

قوله : (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) قيل [١]: ثمانية من الملائكة العظام ، وقيل [٢]: ثمانية صفوف لا يعلم عددهم إلا الله والخطاب في الآية للنبي – صلى الله عليه وسلم – ، وإضافة العرش إلى الرب تفيد التعظيم والتشريف ، " ولما كان أمر الاضطراب هائلا مفزعا أتى بصفة الربوبية مضافة إلى ضمير النبي – صلى الله عليه وسلم – إيناسا للمنزل عليه هذا الذكر ، وتأمينا له من كل ما يحذر " [٣] . وقوله : (فوقهم) إطناب ، أفاد تأكيد ما دل عليه الحمل .

---

(١) الرازي : التفسير الكبير ، ج ٣٠ ص ١٠٩ ، حسنين محمد مخلوف ، صفوة البيان لمعاني القرآن ، دار الشروق ط أولى ١٤٠٤هـ ، ١٩٨٤م ص ٧٤٥ .

(٢) النسفي : تفسير القرآن الجليل ، بيروت ، دار الكتاب العربي ج٣ ص ٥٧٧

(٣) نظم الدرر : ج٢٠ ص ٣٥٥ .

والآيات بأسلوبها وألفاظها وإيقاعها تصور لنا هول النفخ وما يتبعه من حمل ودك للأرض والجبال ، وانشقاق للسماء ، مما يوحى بشدة هذا اليوم ورهبته ، وبهذا يتلاءم جو الآيات مع مطلع السورة بوصفه تهديدا وترهيبا للمكذبين بالقارعة ٠

وامتدادا لهول اليوم الآخر وشدائده تصور لنا سورة المعارج حالة من أحوال السماء والجبال في قول الحق – عز وجل – : " **يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ** " (١)٠ والمهل : ما ذاب من صفر أو حديد ٠ والمهل : ضرب من القطران ما هي رقيق يشبه الزيت (٢) وقيل : هو دردي الزيت وسواء أكان المراد بالمهل الفضة المذابة أو القطران الرقيق أو دردي الزيت ، فالوجه بين السماء والمهل هو السيولة وعدم التماسك ، والغرض من التشبيه بيان حال السماء في هذا اليوم ، فهي تنصهر وتتموج كما يتموج المعدن المذاب أو الزيت المغلي ٠

والمهل يعد سادس أحوال السماء في بداية يوم القيامة وهو مترتب على المور المصور في قوله : " **يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً** " (٣) إذ إن شدة اضطراب السماء وموارها السريع ، يؤدي بها إلى الانصهار والتفكك ، والسيولة وعدم التماسك ، وهذا التصوير يتناسق مع تشقق السماء ووهيها المصور في الحاقة ٠

والجبال تكون في هذا اليوم كالعهن ٠ والعهن : هو الصوف المصبوغ ألوانا ٠ وقيل العهن : الصوف المصبوغ أي لون كان (٤)٠ ولا يقال للصوف عهن إلا إذا كان مصبوغا ، ووجه الشبه بين الجبال

(١) المعارج : ٨ ، ٩ ٠
(٢) لسان العرب ، مادة (مهل) ٠
(٣) الطور : ٩ ٠
(٤) لسان العرب ، مادة (عهن) ٠

والعهن هو الخفة والتفرق والانتفاش كما جاء في سورة القارعة ، في قول الحق : **"وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ "**، وإيثار العهن بالذكر دون الصوف ؛ لإكمال المشابهة ؛ لأن الجبال ذات ألوان كما قال ـ جل شأنه ـ : " **وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ** " (١) فإذا حملت ودكت دكة واحدة حدث فيها انحلال وعدم تماسك بحيث تكون مثل العهن الخفيف المنتفش ، تطيرها الريح كيفما شاءت في يسر وسهولة مثلما تطير الصوف المنفوش .

وتشبيه الجبال بالعهن المنفوش يصور لنا مرحلة جديدة من مراحل تدمير الجبال عقب النفخة الأولى ، إذ إنها أولا : تصاب بالرجفة الشديدة فتكون كالكثيب المهيل ، وذلك قوله : " **يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً** " (٢) ، وثانيا : تسير في الجو وذلك قوله : " **وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ** " (٣)، وثالثا : تنسف وهي في الجو ، وذلك قوله : " **وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ** " (٤)، ورابعا : تكون كالعهن المنفوش ، في تفرق أجزائها ، وهذه الأحوال شديدة الارتباط ، إذ يترتب لاحقها على سابقها ، فتحول الجبال الصلبة بفعل الرجف والدك إلى ما يشبه الكثيب المهيل يؤهلها لأن تسير ، والتسيير يعرضها للنسف ، والنسف يؤدي بها إلى ما يشبه العهن المنفوش .

ومن الملاحظ أن هاتين الآيتين : (يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن) ـ قصرتا على تصوير حال السماء والجبال دون غيرهما من الأجرام الكونية ؛ لأن السماء أمتن الأجرام العلوية

---

(١) فاطر : ٢٧ .
(٢) المزمل : ١٤ .
(٣) التكوير : ٣ .
(٤) المرسلات : ١٠ .

والجبال أصلب الأجرام السفلية ، وقد جمعت الآيتان بين تصويرهما وقد قاربا على التدمير الكامل ؛ ليكون ما يشعر به تصويرهما من هول وفزع ردا مناسبا على السؤال الساخر الذي استهلت به السورة الكريمة فكأن الحق ــ سبحانه ــ يقول لهم : إن العذاب الواقع الذي تسخرون منه وتنكرونه سيكون في يوم شديد ، تكون السماء ــ وهي أقوى الأجرام العلوية ــ من شدته كالمهل ، وتكون الجبال ــ وهي أقوى الأجرام السفلية ــ كالعهن ، فكيف سيكون حالكم أيها الساخرون والعذاب لكم واليوم يومكم ؟ .

***

سورة الواقعة :

قال تعالى : " **إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ * إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجّاً * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً** " (١) .

الآيات تذكر بالواقعة ، وتصور ما يحدث للأرض والجبال من هولها ، وافتتحت الآيات بالظرف المتضمن لمعنى الشرط ، وهو افتتاح بديع يسترعى الألباب ، ويجذب الانتباه ؛ لترقب ما بعد هذا الشرط وهذا المطلع يتضح فيه معنى التهويل من خلال عرض هذا الحدث الهائل في أسلوب يلحظ منه هذا المعنى ، ويتناسق مع مدلولات العبارة " فمرتين يبدأ بإذا الشرطية يذكر شرطها ولا يذكر جوابها ، فكأن هذا الهول كله مقدمة لا تذكر نتائجها ؛ لأن نتائجها أهول من أن يحيط بها اللفظ ، أو تعبر عنها العبارة " (٢) .

---

(١) الواقعة : ١ ـ ٦ .

(٢) في ظلال القرآن ، ج ٦ ص ٣٤٦٢ .

والتعبير عن حصول الساعة بالوقوع إيذان بتحقق وقوعها فكأنها واقعة في نفسها ، والمراد بالواقعة : القيامة ، ووصفت بالوقوع لأنها واقعة لا محالة ، وقوله : (ليس لوقعتها كاذبة) اعتراض مقرر لجملة الشرط ، والمعنى : إذا وقعت الواقعة تحقق منكروها من وقوعها فأقلعوا عن اعتقادهم أنهم لا تقع ، وعلموا أنهم ضلوا ، " وهذا وعيد بتحذير المنكرين للقيامة من خزي الخيبة وسفاهة الرأي بين أهل الحشر " [١] وقوله : (كاذبة) بمعنى كذب فهي مصدر عبر عنه باسم الفاعل " للمبالغة بأنه ليس في أحوالها شيء يمكن أن ينسب إليه كذب [٢] .

قوله : (خافضة رافعة) تقرير لعظمتها ، وتهويل لأمرها ، فهي تخفض أقواما ، وترفع آخرين ، وإسناد الخفض والرفع إلى ضمير الواقعة مجاز عقلي علاقته السببية أو الزمانية إذ الخفض والرفع يقع بسبب الواقعة أو في زمنها ، وفي (خافضة رافعة) محسن بديعي وهو الطباق وقد أضفي على الأسلوب جمالا وروعة مع الإغراب في إثبات الضدين لشيء واحد .

قوله : (إذا رجت الأرض رجا) بدل من قوله : (إذا وقعت الواقعة) ، و (رجت) بمعنى حركت تحريكا شديدا ، فتحت وقع الواقعة والخفض والرفع يتبدى الهول في كيان الأرض الثابتة المستقرة فتصاب بالرج الشديد الذي يسوي كل ما عليها . " وأكد هذا الرج بالمصدر للدلالة على تحققه " . ونكر قوله : (رجا) للتعظيم والتهويل فهو رج عظيم يتناسب وجرمها الكبير ، وهو رج مهول لم يعهد من قبل .

---

(١) التحرير والتنوير ، ج ٢٧ ص ٢٨٢ .
(٢) نظم الدرر ، ج ١٩ ص ١٩٦ .

قوله : (وبست الجبال بسا) أي : فتت من بس الشيء : إذا فتته ، وأكد البس بمصدره للدلالة على تحققه ، والتأكيد على حصوله ونكر المصدر (بسا) للتعظيم والتهويل ، وهذا تصوير لشدة الواقعة التي ترج الأرض بما حملت ، وتفتت الجبال الصلبة فتجعلها أشد نعومة من الدقيق وقوله : (فكانت هباء منبثا) جاء على التشبيه البليغ . والهباء : الشيء المنبعث الذي تراه في البيت من ضوء الشمس شبيها بالغبار. والهابي من التراب : ما ارتفع ودق [1] ، ففي هذا القول الكريم تشبيه للجبال في تفتتها وخفتها وانتشارها في الجو بالهباء ، وفي وصف الهباء بقوله : (منبثا) تحديد لطبيعة هذا الهباء بأنه منتشر متفرق بنفسه من غير حاجة إلى شيء يفرقه ، وهذا يوحي بمدى ما ستصل إليه الجبال من تفتت وانتشار حتى كأنها ذرات لا تكاد ترى وهي منتشرة بنفسها ، ولفظ (الهباء) دقيق التصوير للحالة التي وصلت إليها الجبال ، فهو يوحي بأن الجبال ستظل عالقة في الجو منتشرة ولن يكون لها سقوط أو تجمع وهذا يوحي بشدة الواقعة ، ويتناسب مع مضمونها . والهباء المنبث يعد خامس المراحل التي تصور تدمير الجبال ، وهي مرحلة مترتبة على مرحلة العهن المنفوش ، ومتسببة عنها ، فبعد صيرورة الجبال كالعهن المنفوش يصيبها البس فتصبح كالهباء المنبث .

ورج الأرض ، وبس الجبال المصور في هذه الآيات يتناسب مع الواقعة وهولها بوصفه أثرا من آثارها ، ويتناسب مع سياق السورة بوصفه تهديدا وإنذارا للمصرين على الشرك المنكرين للواقعة المستبعدين للبعث كما حكى الحق قولهم : " **وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ * وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً**

---

(١) لسان العرب ، مادة (هبا) .

وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ " [١] فإذا كان هول الواقعة يرج الأرض رجا ، ويبس الجبال بسا فكيف بحال الإنسان الضعيف أمام هذه الشدائد ؟ إن هذا التهديد لكفيل بإرجاعهم إلى جادة الصواب لو كانت لهم قلوب يعقلون بها ٠٠٠

وفي إطار حديث القرآن عن السماء والجبال يقول الحق: " يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً * وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً * وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً " [٢]. وفتح السماء : انشقاقها ، " والتعبير عن التشقق بالفتح فيه إشارة إلى كمال قدرته ـ تعالى ـ حتى كأن شق هذا الجرم العظيم كفتح الباب سهولة ويسرا وسرعة " [٣] ، وكون السماء بالشق لا تصير أبوابا حقيقة قالوا : إن الكلام جاء على التشبيه البليغ بمعنى : صارت شقوقها لكثرتها وسعتها كالأبواب ٠ والأبواب جمع باب والباب : معروف ٠ والإخبار عن السماء بأنها أبواب جاء على طريقة المبالغة في الوصف ؛ للدلالة على كثرة الفتحات الكبيرة حتى كأن السماء قد محيت شخصيتها ، وأصبحت لا حقيقة لها إلا الأبواب ، وأسند الفعل (فتحت) للمفعول ؛ للتركيز على الغرض الأهم وهو كون السماء أبوابا فهو مصدر الهول والفزع ٠ وللعلم بفاعله ٠

قوله : (وسيرت الجبال فكانت سرابا) ٠ التسيير: هو جعل الشيء سائرا ، وبني قوله : (سيرت) للمجهول ؛ لكي يتوفر الغرض على صورة الحدث ، وهو تسيير الجبال فهو الأهم وهو المفزع فالجبال بعدما بست فصارت هباء منبثا في الواقعة ، تسير

---

(١) الواقعة : ٤٦ ـ ٤٨ ٠

(٢) النبأ : ١٧ ـ ١٩ ٠

(٣) صديق حسن خان : فتح البيان ج ١٠ ص ٢٠٤ ، أبو حيان : النهر الماد بهامش البحر المحيط ، ج٨ ص ٤١٠ ٠

هنا بأقل شيء لأن أقل شيء من الهواء ، وهي تشبه الهباء المنبث – كفيل بتبديدها ومحو جرمها حتى تكون كالسراب ، وفي الآية تشبيه بليغ شبهت فيه الجبال وقد سيرت بالسراب الذي يلوح في الصحراء مما يشبه الماء وليس بماء والوجه أن كلا من الجبال والسراب يرى على شكل شيء وليس بشيء .

وتشبيه الجبال بالسراب دقيق في سياقه ، مرتبط بجو السورة كمال الارتباط ، فعندما يذكر السراب في أي مقام ، يستحضر الذهن صورة لهذا التائه في صحراء مجدبة ، وقد نفذ ماؤه واشتد به الظمأ فأخذ يتطلع في أرجاء الصحراء متلهفا إلى شربة ماء يروي بها ظمأه فإذا به يرى سرابا فيحسبه ماء – لأنه كالماء يبدو من بعيد – فإذا علق عليه الآمال ، وأراد أن يروي ظمأه فأقبل مسرعا إليه لم يجده شيئا ، فأصابته خيبة الرجاء ، وعمه اليأس .

وأرى أن هذا المعنى له ارتباط وثيق بحال المجرمين والجبال يوم القيامة ، فالسورة الكريمة استهلت بالحديث عن القيامة والبعث الذي شغل أذهان الكثيرين من كفار مكة ، فأخذوا يتساءلون عنه فيما بينهم ويخوضون فيه إنكارا واستهزاء ، فجاء قوله : " **كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ** " (١) بمثابة ردع وزجر ووعيد لهؤلاء المستهزئين بأنهم سيرون عاقبة استهزائهم وسيحل بهم العذاب والنكال ، ثم أشار السياق إلى الأدلة الدالة على قدرة الله، ليقيم الحجة على الكفار فيما أنكروه من أمر البعث ؛ إلا أنهم لم يعملوا عقولهم ، ولم يرجعوا عن ضلالهم بل تمادوا في ضلالهم واستهزائهم ، فاشتد تهديد الحق لهم حيث عرض لهم صورة من هول اليوم الذي يأتون فيه أفواجا ، حيث تصبح السماء من هوله

---

(١) النبأ : ٤ ، ٥ .

أبوابا ، والجبال من شدته سرابا ، ولفظة السراب لا تنفصل عن معنى الطمع المؤدي إلى اليأس ، وإذ قد جعلت مشبها به فهي تلقي بظلال هذا المعنى على الجبال ، وكأن المجرمين حين خرجوا أفواجا أيقنوا بسوء العاقبة ، وفداحة المأوى ، فأخذوا يتطلعون إلى كل أفق لعلهم يجدون ملجأ أو مخبأ يقيهم العذاب ـ شأن من اشتد به العطش في الصحراء فهو يبحث عن ماء ـ فإذا بالجبال تتراءي لهم جبالا فيراودهم الأمل في الاختفاء بها فيسرعون نحوها فإذا بهم يجدون ما رأوا سرابا خادعا ويجدون جهنم لهم بالمرصاد فيعمهم اليأس ، ويكسرهم الندم فيصرخ الكفار منهم قائلا : يا ليتني كنت ترابا فهذا نوع من الترابط بين تشبيه الجبال بالسراب ، وسياق سورة النبأ .

وتشبيه الجبال بالسراب يعد آخر أحوالها ، فبهذه الحالة تكون الجبال قد وصلت إلى نهايتها ، ومن المعلوم أن تدمير الجبال قد مر بعدة مراحل تكون فيها الجبال كالكثيب المهيل ، ثم تسير ثم تنسق ثم تكون كالعهن المنفوش ، ثم تكون كالهباء المنبث ثم تكون سرابا ومرحلة السراب مترتبة على مرحلة الهباء المنبث ، إذ إن الجبال بعد صيرورتها كالهباء العالق في الجو يقع عليها التسيير فلا يكون لها بقاء بل تكون كالسراب الخادع تلوح للناظر كأنها شيء وليست بشيء .

وقد جاء التعبير عن فتح السماء ، وسير الجبال بصيغة المضي للتأكيد على تحقق وقوع هذه الأحداث " وكأن الزمان قد انفلت كله ومضى ، ووقعت هذه الأحداث العظام ، ورأى الناس أهوالها ، ثم هو يعرضها عليهم ثانية قصة من الخبر وحدثا من

التاريخ وفي هذا ما فيه " (١).

وبعد : فقد صورت لنا هذه الآيات ما يحدث للسماء والجبال من تدمير في أسلوب قوي ، وألفاظ قوية مصورة لمعناها ، فهذه الجبال التي جعلها الله أوتادا للأرض تكون يوم القيامة سرابا ، وهذه السماوات المبنية بشدة وإحكام تكون يوم القيامة أبوابا ، وهذه الصورة بسمائها وجبالها تلتقي بسياق السورة بوصفها تهديدا لمن أنكر البعث وكذب بالحساب .

***

سورة الانفطار :

قال تعالى : " **إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ** " (٢).

هذه الآيات تصور ما يصيب السماء والكواكب ، والبحار والقبور في مطلع يوم القيامة . وافتتاح السورة بـــ (إذا) افتتاح مشوق ؛ لأن إذا ظرف يستدعي متعلقا ، ولأنها شرط يؤذن بذكر جواب بعدها فإذا سمع السامع هذا الشرط ترقب ما سيأتي بعده فعندما يسمعه يتمكن من نفسه ، وإعادة الظرف بعد واو العطف ، في الآيات الثلاث ، إطناب اقتضاه قصد ، التهويل .وافتتاح جملة الشرط في الآيات بالمسند إليه المخبر عنه بمسند فعلي ، جاء لقصد الاهتمام بذكر ما أسندت إليه الأفعال ، وليفيد تقديم المسند إليه على المسند

---

(١) د / محمد أبو موسي دلالات التراكيب ، القاهرة ، دار التضامن ط الثانية سنة ١٤٠٨ هـ ص ٣٣١ ، وانظر : د / نزيه عبد الحميد : أسلوب الالتفات ، القاهرة ، دار البيان ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ ، ص ٥٣ .

(٢) الانفطار : ١ ـ ٥ .

الفعلي : تقوية الحكم وتأكيده ٠

وانفطار السماء يوم القيامة هو شقها وانفراجها تبعا لوهيها وضعفها ٠ وانتثار الكواكب مستعار لإزالتها ، حيث شبهت الكواكب بجواهر قطع سلكها بجامع التساقط والتفرق في كل ، وفي هذا إيحاء بأن هذه الكواكب الضخمة السابحة بنظام ودقة حين تصيبها شدة النفخة تتساقط متفرقة ، كما تتساقط حبات العقد من السلك إذا انقطع تساقطا كأنه لسرعته لا يحتاج إلى فعل فاعل لقوة تداعيه إلى التساقط ، وفي هذا إشارة إلى أن الكواكب حال تساقطها سيصيبها التفتت والتمزق حتى تصبح صغيرة كحبات العقد ، وأنها ستتوه في مهاوي العدم بحيث لو طلبها طالب لم يعثر لها على أثر ، شأن حبات العقد حين تتوه في مناكب الأرض ٠ وتعد هذه الحالة نهاية الكواكب يوم القيامة ٠

وتفجير البحار : فتح بعضها إلى بعض ، واختلاط العذب بالمالح وزوال البرزخ الذي يفصل بينها حتى تصير البحار بحرا واحدا ، ويعد تفجير البحار تطورا لما يصيبها عقب النفخة الأولى ، إذ إنها أولا تسجر ٠ أي : تملأ كما جاء في التكوير ، وتسجيرها يؤدي إلى تفجيرها المصور في سورة الانفطار ، فهذا نوع من التطور في أحوال البحار وبتفجير البحار تكون قد وصلت إلى نهايتها، إذا التفجير آخر أحوالها عقب النفخة الأولى ، كما جاء في الكتاب الحكيم ٠

وبعثرة القبور : قلب ترابها ، وإثارة ما فيها من بعثر الشيء: فرقه ، وبعثر التراب والمتاع : قلبه [١] ، وبعثرة القبور حالة من حالات الانقلاب الأرضي ، وخصت بالذكر من بين حالات

---

(١) لسان العرب ، مادة (بعثر) ٠

الأرض ؛ لما فيها من الهول ، فهي تؤدي إلى البعث ، وهذا إيحاء بمدى قوة التقليب والبعثرة التي تحدث للأرض حتى تجعلها تتخلص مما في بطنها ـ وما في بطنها كثير ـ وصيرورة ما في باطن الأرض ظاهرا على وجهها أمر مهول فظيع يوحي بشدة البعثرة وقوتها .

قوله : (علمت نفس ما قدمت وأخرت) جواب لما في (إذا) من معنى الشرط ، " وإثبات العلم للناس بما قدموا وأخروا عند حصول تلك الشروط ؛ لعدم الاعتداد بعلمهم الذي كان في الحياة الدنيا، فنزل منزلة عدم العلم ، وهذا وعيد بالحساب على جميع أعمال المشركين " [1] وفي هذا الجواب ترهيب لكل نفس بأنها ستعلم ما قدمت وأخرت في يوم مهول شديد ، من هوله وشدته انفطرت السماء ، وانتثرت الكواكب وفجرت البحار ، وبعثرت القبور ، والطباق بين (قدمت وأخرت) فيه ترغيب في العمل الصالح ، وترهيب من العمل الطالح ، فمن قدم العمل الصالح وأخر السيئات كان يوم الدين من الأبرار أصحاب دار النعيم ، ومن فعل غير ذلك كان يوم الدين من الفجار أصحاب دار الجحيم .

والآيتان تعرضتا لتصوير ما يحدث للكون في بداية يوم القيامة من اضطراب وتدمير في نظم قوي مترابط ، وألفاظ جزلة مصورة ، وأسلوب هادئ بطيء ، وترتيب منسق بديع . يقول الرازي : " السماء كالسقف والأرض كالبناء ، ومن أراد تخريب دار فإنه يبدأ أولا بتخريب السقف . وذلك قوله : (إذا السماء انفطرت) ثم يلزم من تخريب السماء انتثار الكواكب . وذلك قوله : (وإذا الكواكب انتثرت) ثم إنه ـ تعالى ـ بعد تخريب السماء والكواكب

---

(١) التحرير والتنوير ج ٣٠ ص ١٧٣ .

يخرب كل ما على وجه الأرض وذلك قوله : (وإذا البحار فجرت) ، ثم إنه ــ تعالى ــ يخرب آخر الأمر الأرض ٠ وذلك قوله : (وإذا القبور بعثرت) إشارة إلى قلب الأرض ظهرا لبطن وبطنا لظهر " (١)

وفي شأن السماء والأرض في بداية يوم القيامة يقول الحق : " **إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وأذنت لربها وحقت** " (٢) .

الآيات تصور حال السماء والأرض يوم القيامة ، واستهلت بـ (إذا) الظرفية المتضمنة لمعنى الشرط ، وهو استهلال بديع مشوق وجاء شرط (إذا) مفتتحا بالمسند إليه المخبر عنه بمسند فعلي لقصد الاهتمام بالمسند إليه ، وتقوية الحكم وتأكيده ، وحذف جواب (إذا) " ليذهب المقدر فيه كل مذهب ، أو اكتفاء بما علم في مثلها من سورتي التكوير والانفطار ، أو جوابها ما دل عليه (فملاقيه) بمعنى إذا السماء انشقت لاقى الإنسان كدحه " (٣) . والانشقاق الذي يصيب السماء يكون مصاحبا لقيام الساعة ٠

قوله : (وأذنت لربها) أي استمعت له ٠ فأذن : مشتق من الأذن وهي جارحة السمع في الإنسان ٠ يقال : أذن له أذنا: أي استمع إليه وأصغى ٠ ومنه قول الشاعر :

صم إذا سمعوا خيرا ذكرت به

وإن ذكرت بشر عندهم أذنوا

إن يأذنوا ريبة طاروا بها فرحا

وما هم أذنوا من صالح دفنوا (٤)

---

(١) التفسير الكبير ، ج ٣١ ص ٧٧ ٠
(٢) الانشقاق : ١ ـ ٥ ٠
(٣) الكشاف : ج٤ ص ٧٢٥ ٠
(٤) لسان العرب ، مادة (أذن) ٠

واستماع السماء مجاز عن انقيادها وطاعتها ، حيث شبه انقياد السماء وطاعتها لتأثير قدرة الله ــ عز وجل ــ حين تعلقت إرادته بانشقاقها وتفريق أجزائها ، بالعبد الطائع الذي إذا ورد عليه الأمر من جهة المالك انصت له وأذعن ، بجامع انقياد المأمور المطواع إذا ورد عليه أمر الآمر المطاع ، وفي هذه تصوير لمدى انصياع السماء لأمر ربها ، والتعبير بـ (ربها) دون غيره من أسماء الله ، لما يؤذن به من الملك والتدبير .

هذا : وسماعها على الحقيقة غير مستبعد لقوله ــ تعالى ــ " **قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ** " [(١)] .

قوله : (وحقت) اعتراض مقرر لما قبله بمعنى : " أنها مجبولة على أن ذلك حق ثابت لها ، فهي حقيقة به ؛ لأنها مربوبة له سبحانه وكل مربوب حقيق بالانقياد لربه " [(٢)] ، والسماء لا تخرج عن سلطان قدرة الله ــ تعالى ــ وإن عظم سمكها ، واشتد بناؤها ، فما ذلك كله إلا من تقدير الله لها ، فإذا شاء إزالتها فهي مصغية مطيعة وفي ابتداء السورة بتصوير حال السماء ، إشارة إلى أن السماء أعلى مكانا ومكانة وإنصاتها لأمر الله وانصياعها لتقديره ، يدل ضمنا على إنصات غيرها وانصياعه . فهذا من براعة الاستهلال .

قوله : (وإذا الأرض مدت) أي : مد الله الأرض يمدها مدا: بسطها وسواها [(٣)] ، وتمدد الأرض يكون بعد زوال الجبال عنها فهو مترتب على قول الله ــ تعالى ــ:"**وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً** "[(٤)]

---

(١) فصلت : ١١ .
(٢) نظم الدرر ، ج ٢١ ص ٣٣٦ .
(٣) ابن منظور : لسان العرب ، مادة (مَدد) .
(٤) النبأ : ٢٠ .

وبمد الأرض يزول كل انثناء فيها فتستوي ، ويظهر فيها الاتساع المبسوط بحيث لا يرى فيها عوج ولا أمت كما قال ـ عز وجل ـ " **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً * فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً * لا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً** " [١] ، وقوله : (مدت) يوحي بتمدد الأرض إلى الاستطالة بعد التكوير ، ويؤيد هذا ما أخرجه الحاكم بسند جيد عن جابر عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : " تمد الأرض يوم القيامة مدا لعظمة الرحمن ثم لا يكون لابن آدم فيها إلا موضع قدميه " [٢] .

قوله : (وألقت ما فيها وتخلت) تعبير يصور الأرض كائنة حية تلقي ما في جوفها من أموال وكنوز وأموات وتخرجه إخراجا سريعا كأنها تقذفه قذفا ، وكلمة (تخلت) لها إيحاء خاص ، فهي تصور الأرض وكأنها تعمدت وتكلفت أقصى جهدها في التخلي عن أثقالها ، كما يقال ، تكرم الكريم ، وترحم الرحيم ، إذا بلغا جهدهما في الكرم والرحمة وتكلفا فوق ما في طبعهما [٣]، وإسناد الإلقاء ، والتخلية إلى الأرض مجاز عقلي ؛ يصور الأرض كائنا حيا متعبا بالأثقال فهو يتكلف فوق طاقته في إلقاء هذه الأثقال والتخلي عنها. وقوله (وأذنت لربها وحقت) مجاز عن انقياد الأرض وطاعتها لأمر ربها .

وبهذا التصوير الجيد البديع " تبدو السماء والأرض خليقتين من الأحياء تستمعان للأمر ، وتلبيان للفور ، وتطيعان طاعة المعترف بالحق المستسلم لمقتضاه ، استسلاما لا التواء فيه ، ولا

---

(١) طه : ١٠٥ـ١٠٧ .

(٢) الحاكم : المستدرك بيروت ، دار المعرفة ، كتاب الأهوال ج ٤ ص ٥٧٠

(٣) انظر : نظم الدرر ج ٢١ ص ٣٣٧ ، تفسير أبي السعود ج ٥ ص ٨٥٠ ، فتح البيان ج ١٠ ص ٢٨٣ .

إكراه " [١] " وفي ذلك تعريض بالإنسان وتهييج له على أن يطيع الله ــ عز وجل " [٢] وأن يكون سريعا في تنفيذ أوامره ٠

ومع أن الموقف من مواقف الانقلاب الكوني في ذلك اليوم إلا أن الصورة هنا يظللها الخشوع والجلال ، والوقار والهدوء العميق فتطبع في الحس والشعور ذلك الاستسلام الطائع الخاشع في غير جلبة ولا معارضة ؛ لتكون هذه الصورة بما حوت تمهيدا مناسبا لخطاب الإنسان وتبصيره بنفسه ، وتذكيره بأمر الحساب والعقاب ٠

وإذا كانت السماء قد انشقت وأصابها الكشط ، والمور فإن نهاية السماء يأتي لها تصوير في قول الحق : " **فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ** " [٣]والوردة : واحدة الورد ، وهو زهر أحمر وعلى هذا يقال : عشية وردة : إذا أحمر أفقها عند غروب الشمس وقميص مورد : إذا صبغ على لون الورد [٤]، والمعنى : أن السماء من شدة انصهارها صارت حمراء كالوردة ٠ والدهان : واحدة الدهن والدهن معروف وهو ما يدهن به٠ يقال : ادهن بالدهن ودهنته بالدهان ، وتدهن ، وادهن : إذا تطلى بالدهن[٥] والمعني أن السماء تكون لشدة انصهارها حمراء كوردة ، وأنها تكون كالدهان في شدة ذوبانها وسرعة حركتها وتموجها ٠

ويجوز أن يكون قوله : (وردة) اسم مرة من الورود ، وعلى هذا يكون المعنى : أن السماء تكون مرة واحدة كالدهان في الذوبان وسرعة الحركة والتموج ؛ " لأن الدهن المذاب يصب

(١) في ظلال القرآن الكريم ج ٦ ص ٣٨٦٦ ٠
(٢) الأساس في التفسير ، ج ١١ ص ٦٤٣٩ ٠
(٣) الرحمن : ٣٧ ٠
(٤) لسان العرب ، مادة (ورد) ٠
(٥) لسان العرب ، مادة (دهن) ٠

انصبابة واحدة ويذوب دفعة ، والحديد والرصاص لا يذوب غاية الذوبان فتكون حركة الدهن بعد الذوبان أسرع من حركة غيره. فكأنه قال : حركتها تكون وردة (اسم مرة) واحدة كالدهان المصبوبة صبا لا كالرصاص الذي يذوب منه ألطفه وينتفع به ، ويبقي الباقي ، كذلك الحديد والنحاس " [1]وفي هذا تهويل للأحداث التي تذوب منها السماء بالرغم من قوتها وضخامتها وتماسكها.

وتشبيه السماء بالوردة والدهان يعد تصويرا لآخر أحوال السماء عقب النفخة الأولى ، وهي الحالة السادسة ، وهذه الحالة مترتبة على مور السماء ، المصور في الطور ، إذ : إن مور السماء وشدة اضطرابها ، وحركتها السريعة في جهات مختلفة يؤدي بها إلى نهايتها وهو الذوبان ، وهذه الحالة صورت في سورة المعارج ، وفي سورة الرحمن من عدة وجوه تتكامل وتتناسق في إبراز الحالة النهائية للسماء فمن حيث سيولتها وعدم تماسكها فهي كالمهل ، وذلك قوله : " **يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ** " [2] ، ومن حيث لونها فهي حمراء كوردة ومن حيث شدة ذوبانها وسرعة تموجها واضطرابها فهي كالدهان . وذلك قوله : (فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان) .

---

(١) التفسير الكبير ، ج ٢٩ ص ١١٧ .

(٢) المعارج : ٨ .

خاتمة البحث :

صورت لنا الآيات السابقة الأحداث الكونية التي تصيب الكون عقب نفخة الصور الأولى ، حيث ينفرط عقد هذا الكون المنظوم ، وتختل روابطه وضوابطه التي تمسك به ، ويكاد القاريء يرى الأحداث المذهلة في ضوء الآيات القرآنية الجازمة ففي ضوء السياق، والنظم والعبارات وجرس الألفاظ نكاد نرى الأرض وهي تحمل بجبالها وكتلها الضخمة فتدك دكة واحدة ، ونكاد نرى السماء وهي تمور٠٠ والكواكب وهي تتساقط ، والجبال وهي تنسف ٠٠ وهكذا ٠

إن اضطراب النظام الكوني ، واختلاله يوم القيامة ، ليملأ نفوس الناس على اختلاف طبقاتهم هيبة ورهبة ، وأكثر الاضطراب يقع للأرض والجبال والبحار ، والسماء والنجوم والكواكب ، كما في مطالع التكوير ، والانفطار ، والانشقاق ، وقد تنوعت هذه الأحداث بسطا وإيجازا وتطورا ، ونتيجة لهذه الدراسة سأذكر بإيجاز ما يصيب كل جرم متتبعا أحواله من بداية إصابته ، وحتى نهاية تدميره ٠

أولاً : السماء :

تتأثر السماء يوم القيامة تأثيراً مباشراً ومؤثراً بنفخة الصور مما ينتج عنه تدميرها تدميرا كاملا ، وهذا التدمير يكون على مراحل تنتقل فيها السماء من حالة إلى حالة حتى تصل إلى نهايتها ٠

وأول أحوالها عقب النفخة الأولى : الانفطار : وهو الانشقاق وهذا الانفطار ينتج عن وهيها وضعفها وعدم تماسكها أمام أهوال يوم القيامة وشدائده ، وقد صور القرآن انفطار السماء وتشققها في

عدة آيات منها قوله : " **السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً** " (١) وقوله " **وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ** " (٢) وقوله : " **إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ** " (٣) وقوله : " **وإذا السماء انشقت** " (٤).

وثاني أحوال السماء : الفروج ، وهذا الفروج مترتب على الانفطار والانشقاق ، فالشقوق التي تظهر في السماء ، تتسع شيئا فشيئا من هول أحداث يوم القيامة حتى تصبح فروجا . وقد صور القرآن فروج السماء في قوله : " **وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ** " (٥) ، وصور اتساع فروج السماء فشبهها بالأبواب في قوله : " **وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً** " (٦) .

وثالث أحوال السماء : الإزالة ، فبعد كثرة شقوقها واتساع فروجها تزال من مكانها كما يكشط جلد الحيوان فيزال من مكانه ، وقد صور القرآن هذه الحالة في قوله : " **وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ** " (٧)

ورابع أحوال السماء : الطي . فبعد إزالة السماء من مكانها وقلعها من ثباتها تطوى كطي السجل للكتب ، وقد صور القرآن هذه الحالة في قوله : " **يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ** " (٨) .

وخامس أحوال السماء : المور ، وهو اضطراب جرمها وتحركها بسرعة في جهات مختلفة إثر طيها ، وهذه الحالة صورت

---

(١) المزمل : ١٨ .
(٢) الحاقة : ١٦ .
(٣) الانفطار : ١ .
(٤) الانشقاق : ١ .
(٥) المرسلات : ٩ .
(٦) النبأ : ١٩ .
(٧) التكوير : ١١ .
(٨) الأنبياء : ١٠٤ .

في قوله : " **يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً** " [١] .

وسادس أحوال السماء : الانصهار ، وهو متسبب عن مورها واضطرابها ، وقد صور انصهار السماء من عدة نواح فمن ناحية سيولة السماء وعدم تماسكها جاء قوله : " **يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ** " [٢] ومن ناحية لونها ، وسرعة ذوبانها وتموجها جاء قوله : " **فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ** " [٣] ، وبهذا تكون السماء قد وصلت إلى نهايتها بعد أن أصبحت سائلا منصهرا سريع السيلان والتفرق ، وهذه الأحوال التي تتدرج فيها السماء في بداية يوم القيامة كلها واردة في الكتاب الحكيم ، ويترتب لاحقها على سابقها ، وقد استنبطت هذا الترتيب من خلال الترتيب النزولي للسور التي وردت فيها هذه الآيات فأصبح هذا الترتيب موثقا من ناحيتين : ناحية الترتيب النزولي للسور وناحية الترتيب الطبعي لهذه الأحداث .

ثانياً : الجبال :

تصاب الجبال في بداية اليوم الآخر بالدمار الكامل الشامل متأثرة بنفخة الصور وقوتها ، ودمار الجبال في بداية يوم القيامة يمر بعدة مراحل تنتقل فيها الجبال من حالة إلى حالة حتى تصل إلي نهايتها وأول أحوال الجبال عقب النفخة الأولى : أن تكون كثيبا مهيلا من أثر الرجفة الشديدة والدكة القوية ، وصورت هذه الحالة في قوله : " **يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً** " [٤] وقوله : " **وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً**

---

(١) الطور : ٩ .
(٢) المعارج : ٨ .
(٣) الرحمن : ٣٧ .
(٤) المزمل : ١٤ .

وَاحِدَةً " [١] وثاني أحوال الجبال : أن تسير في الجو إذ : إن صيرورة الجبال كثيبا مهيلا يؤهلها لأن تنزع من فوق الأرض فتسير وصورت هذه الحالة في قوله : " **وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ** " [٢] وأكد سير الجبال في قوله : " **وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً** " [٣].

وثالث أحوال الجبال : النسف ٠ إذ : إنها حين تسير في الجو وهي كثيب مهيل تكون مؤهلة لهذه النسف ، فتنسف ، وصور النسف في قوله : " **وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ** " [٤] ، وأكد هذا النسف في قوله : " **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً** " [٥] ، ورابع أحوال الجبال أن تكون كالعهن المنفوش ، إذ إن نسفها يؤهلها لأن تتفرق وتتبدى ألوانها كالعهن وصورت هذه الحالة في قوله : " **وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ** " [٦] وقوله : " **وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ** " [٧] ٠ وخامس أحوال الجبال : أن تكون كالهباء المنبث إذ إن شدة النسف والبس تحولها من ضعف الصوف وتفرقه إلى دقة الهباء وانتشاره ، وصورت هذه الحالة في قوله : " **وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً** " [٨] وسادس أحوال الجبال : أن تكون سرابا فبعد صيرورة الجبال هباء منبثا ، تسير هذه الذرات الصغيرة حتى تصبح الجبال سرابا ، وصورت هذه الحالة في قوله : " **وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً** " [٩] وبهذا تكون الجبال قد وصلت

---

(١) الحاقة : ١٤ ٠
(٢) التكوير : ٣ ٠
(٣) الطور : ١٠ ٠
(٤) المرسلات : ١٠
(٥) طه : ١٠٥ ٠
(٦) القارعة : ٥ ٠
(٧) المعارج : ٩ ٠
(٨) الواقعة : ٥ ، ٦ ٠
(٩) النبأ : ٢٠ ٠

إلى نهايتها بحيث تكون كالسراب تتراءي للناظر كأنها شيء ، وليست بشيء ٠ وترتيب أحوال تدمير الجبال يوم القيامة قائم على أساس الترتيب النزولي للسور ، ثم الترتيب الطبعي للأحداث ، إذ إن أحداث الجبال بهذا الترتيب يؤدي سابقها إلى لاحقها ، ويترتب لاحقها على سابقها٠ في ترتيب منسق وتطور منظم ٠

ثالثاً : الأرض :

تصاب الأرض في بداية يوم القيامة بالاضطراب الشديد والزلزال المدمر العنيف ، الذي يهدم ما عليها من جبال وبنيان ويسوى عاليها بسافلها ، ويغير معالمها ، وتنتقل الأرض في هذا الهول المدمر من حالة إلى أخرى حسبما أرادها الحق ــ جلت قدرته ــ وأول أحوال الأرض يوم القيامة : الرجف الشديد ٠ وقد صور في قوله : " **يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً** " (١) ، وقوله : " **إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجّاً** " (٢) وقوله : " **إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا** " (٣) وثاني أحوال الأرض : الدك وقد صور في قوله : " **وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً** " (٤) وثالث أحوال الأرض : البعثرة أي تقليب ترابها وقد صور في قوله : " **وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ** " (٥) ورابع أحوال الأرض : تمددها وإلقاء ما في جوفها ، وقد صور في قوله : " **وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ** " (٦) وقوله " **وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا** " (٧) وخامس أحوال

---

(١) المزمل : ١٤ ٠
(٢) الواقعة : ٤ ٠
(٣) الزلزلة : ١ ٠
(٤) الحاقة : ١٤ ٠
(٥) الانفطار : ٤ ٠
(٦) الانشقاق : ٣ ، ٤ ٠
(٧) الزلزلة : ٢ ٠

الأرض : أن تكون قاعا صفصفا ، أي : صلبة مستوية ملساء كما أرادها الحق ـ سبحانه ـ وذلك قوله : " **فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً * لا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً** " (١) .

رابعاً : البحار :

يصيب البحار ما يصيب غيرها من أهوال يوم القيامة فتعتريها حالتان تصوران ما أصابها من دمار ، الحالة الأولى : التسجير بمعنى تملأ بالماء حتى تفيض على سطوحها ، وصور هذا في قوله : " **وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ** " (٢) الحالة الثانية : التفجير ، بمعنى أن الجبال حين تملأ ويطغى ماؤها على سطحها يصيبها التفجير فيتحطم البرزخ الفاصل بينها وتختلط الأنهار ، والبحار ، والمحيطات حتى تصبح بحرا واحداً وصور هذا في قوله : " **وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ** " (٣) .

خامساً : الشمس والقمر :

تصاب الشمس والقمر بأهوال اليوم الآخر فتكور الشمس ويمحى ضوءها ، وذلك قوله : " **إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ** " (٤) وتبعا لمحو ضوء الشمس يمحى ضوء القمر ، ويجمع بينهما إلى حيث أراد الله لهما وذلك قوله : " **وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ** " (٥) .

سادساً : النجوم والكواكب :

يصيب النجوم والكواكب التدمير الكامل من شدة النفخة وهول

(١) طه : ١٠٦ ، ١٠٧ .
(٢) التكوير : ٦ .
(٣) الانفطار : ٣ .
(٤) التكوير : ١ .
(٥) القيامة : ٨ ، ٩ .

اليوم الآخر وأول ما يصيب النجوم : الانكدار ، وهو انطفاء نورها وانعدام بريقها ، وتعكير صفائها ، وذلك قوله : " **وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ** " [١] وثاني ما يصيب النجوم : الطمس ، وهو استئصال أثرها ومحوها بالكلية ، وذلك قوله : " **فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ** " [٢]. أما الكواكب فهي تفرق ، وتزال من مكانها ، وتتساقط متفتتة كما تتساقط حبات العقد إذا انقطع سلكها وذلك قوله : " **وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ** " [٣].

وبهذا تكون الآيات السابقة قد نظمت ما يحدث للكون يوم القيامة نظما متعدد الجوانب يفيض بالحركة الشديدة التي محورها اضطراب الأرض والسماء وما فيهما من جبال وبحار ، ونجوم وكواكب ، وقد ذكرت الأحوال التي تعتري كل جرم يوم القيامة ، ورتبتها ترتيبا اجتهاديا يقوم على أساس الترتيب النزولي للسور ، والترتيب الطبعي للأحداث بحيث تكون كل حالة من أحوال الأجرام الكونية مترتبة على سابقتها ترتيبا نزوليا ، وترتيبا طبعيا فمثلا البحار تعتريها حالتان التسجير ثم التفجير ، والتسجير أسبق في النزول من التفجير ، ثم إن التسجير يؤدي إلى التفجير ، والتفجير مترتب عليه ، متسبب عنه وهكذا في كل جرم .

وقد برز التشبيه ، والمجاز ، والكناية ، في تصوير ما يحدث للكون عقب النفخة الأولى ، كأدوات لها دورها الفعال في تصوير هذه الأحداث ، وتقريبها وإيضاحها كي تؤدي غرضها المساقة إليه ، إذ الغرض من عرض هذه الأحداث إما تذكير المؤمنين بها ، وإما تهديد الكافرين وتحذيرهم من عذاب ينتظرهم في يوم تحدث فيه هذه

---

(١) التكوير : ٢ .

(٢) المرسلات : ٨ .

(٣) الانفطار : ٢ .

الأحداث المهولة ، وبالإضافة إلى الطرق التصويرية البلاغية ، فقد ساهمت الألفاظ المصورة ، والعبارات المتلائمة والسياق المتين المترابط والنظم الذي يتلائم مع الحدث المعروض في إبراز تلك الأحداث المهولة التي تصيب الكون عقب النفخة الأولى ، من تدمير شامل ، وتغيير لكل مألوف ، وتبديل لكل معهود ٠

نسأل الله ــ تعالى ــ أن يجعلنا من الآمنين يوم القيامة ، وأن يجعلنا من الذين يظلهم تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ٠

دكتور / إبراهيم حسن أحمد

أهم المصادر والمراجع

١ ـ الإتقان في علوم القرآن ، للحافظ جلال الدين السيوطي ، ت محمد أبو الفضل إبراهيم القاهرة ، دار التراث ، ط ٣ ، ١٤٠٥هـ .

٢ ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، لأبي السعود القاهرة دار الفكر .

٣ ـ الأساس في التفسير : سعيد حوي ، القاهرة ، دار السلام ط أولى ، ١٤٠٥هـ .

٤ ـ أسلوب الالتفات : د / نزيه عبد الحميد ، القاهرة ، دار الريان ط أولى ١٤٠٣هـ .

٥ ـ إعراب القرآن وبيانه : محي الدين الدرويش ، بيروت ، دار ابن كثير ، ١٤٠٨هـ .

٦ ـ إملاء ما من به الرحمن لأبي البقاء العكبري ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط أولى ، ١٩٧٩م .

٧ ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل للقاضي أبي سعيد عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي ، القاهرة ، مصطفى الحلبي .

٨ ـ البرهان في علوم القرآن ، لبدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ت محمد أبو الفضل إبراهيم ، بيروت ، دار المعرفة

٩ ـ التحرير والتنوير لسماحة الأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور تونس ، الدار التونسية للنشر ، ١٩٨٤م .

١٠ ـ التفسير الكبير للإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي ، بيروت دار إحياء التراث العربي .

١١ـ تفسير القرآن الجليل لأبي البركات عبد الله بن أحمد النسفي بيروت ، دار الكتاب العربي ٠

١٢ـ تقريب القرآن إلى الأذهان ، للإمام السيد محمد الشيرازي بيروت ، مؤسسة الوفاء ، ط أولى ، ١٤٠٠هـ ٠

١٣ـ تلخيص البيان في مجازات القرآن ، للشريف الرضي ، القاهرة عيسي الحلبي ط أولى ١٣٧٤هـ ٠

١٤ـ الجامع لأحكام القرآن ، لشمس الدين أبي عبد الله القرطبي بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، ١٩٦٥م ٠

١٥ـ حاشية محي الدين شيخ زادة على البيضاوي ، تركيا ، المكتبة الإسلامية ٠

١٦ـ دلائل الإعجاز للإمام أبي بكر عبد القاهر الجرجاني ، ت محمود شاكر ، القاهرة مكتبة الخانجي ٠

١٧ـ دلالات التراكيب د / محمد أبو موسي ، القاهرة ، مكتبة وهبة ط ٢ ، ١٤٠٨هـ ٠

١٨ـ ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري ، القاهرة مصطفى الحلبي ط أخيرة ١٣٩١هـ ٠

١٩ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، لأبي الفضل شهاب الدين الألوسي ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ط ٤ ١٤٠٥هـ ٠

٢٠ـ الصحاح لإسماعيل بن حماد الجوهري ، ت أحمد عبد الغفور بيروت ، دار العلم للملايين ط٢ ، ١٣٩٩هـ ٠

٢١ــ صفوة البيان لمعاني القرآن ، حسنين محمد مخلوف ، القاهرة دار الشروق ط أولى ١٤٠٤هـ .

٢٢ــ فتح القدير الجامع بين فن الرواية والدراية من علم التفسير للإمام الشوكاني ، القاهرة مصطفى الحلبي ، ط أولى ، ١٣٥١هـ .

٢٣ــ فتح البيان في مقاصد القرآن للسيد الإمام صديق حسن خان القاهرة ، مطبعة العاصمة ، ١٩٦٥م .

٢٤ــ الفرقان في تفسير القرآن والسنة ، محمد الصادقي ، مؤسسة الأعلمى للمطبوعات ، ط أولى ، ١٣٩٨هـ .

٢٥ــ في ظلال القرآن ، لسيد قطب ، بيروت ، دار الشروق ط ١٣ سنة ١٤٠٧هـ .

٢٦ــ القاموس المحيط لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي بيروت ، دار الجيل .

٢٧ــ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للإمام محمود بن عمر الزمخشري ، القاهرة دار الريان للتراث ، ط ٣ ، ١٤٠٧هـ .

٢٨ــ لسان العرب لابن منظور ، القاهرة ، دار المعارف .

٢٩ــ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين بن الأثير ت . أحمد الحوفي ، د . بدوي طبانة ، القاهرة ، نهضة مصر .

٣٠ــ المستدرك على الصحيحين ، لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري بيروت ــ دار المعرفة .

٣١ـ المسند لأحمد بن حنبل ، بيروت ، المكتب الإسلامي ط ٥ ، ١٤٠٥هـ ٠

٣٢ـ مشكل إعراب القرآن ، لمكي بن أبي طالب القيسي ت ٠ ياسين محمد السواس دمشق ، دار المأمون للتراث ، ط ٢ ٠

٣٣ـ مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور للبقاعي ، الرياض مكتبة المعارف ، ط أولى ، ١٩٨٧م ٠

٣٤ـ المصباح المنير للفيومي ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ط أولى ١٩٢٥م ٠

٣٥ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام ، ت ٠ محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، مكتبة صبيح ٠

٣٦ـ المفردات في غريب القرآن ، للراغب الأصفهاني ت ٠ محمد سيد كيلاني القاهرة ، مصطفى الحلبي ، ط أخيرة ١٣٨١هـ

٣٧ـ الميزان في تفسير القرآن ، للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي ـ لبنان ـ مؤسسة العلمي للمطبوعات ، ط ٢ ، ١٣٩٤هـ ٠

٣٨ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام برهان الدين البقاعي مراقبة د / محمد عبد المعين خان ، حيدر أباد الدكن، مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ط أولى ، ١٣٨٩هـ ٠

٣٩ـ النهر الماد ، لأبي حيان الأندلسي مطبوع بهامش البحر المحيط لبنان ، دار الفكر ، ط ٢ ، ١٤٠٣هـ ٠

٤٠ـ يوم القيامة للشيخ محمد متولي الشعراوي ، القاهرة مؤسسة أخبار اليوم ٠